القاضى عياض
دراسة فى النشأة والتكوين العلمى

د / حسين سيد عبد الله مراد (*)

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة علماً شهيراً من أعلام المغرب بوجه خاص ، والعالم الإسلامى بوجه عام ، هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى - رحمه الله - اعترافاً بما له من قدر مكين ، ومكان رفيع ، وسط أعلام الحضارة الإسلامية فى الغرب الإسلامى حتى شاع على ألسنة الجماهير المغربية القول بأنه : « لولا عياض ما ذكر المغرب » .

وتهتم هذه الدراسة بالنشأة والتكوين العلمى للقاضى عياض أى دراسة المرحلة الأولى من حياته ، وذلك بدراسة مجتمع سبتة الذى أنجبه بأوضاعه الجغرافية والاقتصادية والسياسية ، بالإضافة إلى موارد ثقافته التى أسهمت فى تفرده ونبوغه. وتبدأ هذه المرحلة من حياته منذ أن أبصر النور فى مسقط رأسه سبتة، فى منتصف شعبان عام ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، وتنتهى بعودته من رحلته العلمية إلى الأندلس رائداً من رواد الفكر والثقافة عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م .

أما المرحلة الثانية والتى تبدأ بعودته من الأندلس وتوليه منصب القضاء ، وتفرغه للتأليف والمشاركة فى الحياة العامة وتنتهى بوفاته عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، فقد تناولتها دراسات عديدة . ففى ندوة الإمام مالك ، دور القاضى عياض(**) ، جاءت عناوين الأبحاث كالأتى « عياض المحدث »

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ - معهد البحوث والدراسات الإفريقية .

(**) عقدت هذه الندوة برعاية وزارة الأوقاف المغربية في مدينة مراكش في مارس ١٩٨١ .

« القاضى عياض مفسراً » « القاضى عياض الشاعر » « الجانب الأدبى فى حياة عياض » « القاضى عياض المصلح الاجتماعى » « موقف القاضى عياض من الإمام الغزالى » « موقف القاضى عياض من المرابطين والموحدين » وغير ذلك من الدراسات .

إن هذا التنوع والشخصية العلمية للقاضى عياض والسبق الذى حازه فى ميدان الفكر والثقافة ، دفعنى أولاً للبحث عن نشأته لارتباطها الوثيق بما وصل إليه من مكانة علمية سامية أشاد بها المؤرخون ، ودفعنى ثانياً إلى البحث عن العوامل التى أسهمت فى تكوينه العلمى حتى أصبح الأفضل بين معاصريه .

ولكن العالم ـ آخر الأمر ـ هو ابن بيئته ، ولهذا فقد إنشغلت هذه الورقة البحثية بدراسة المجتمع الذى نشأ فيه القاضى عياض ، بإعتباره المسئول الأول عن تكوينه ، سواء من حيث الأسرة والعائلة ، أو من حيث المجتمع المحلى ـ العلمى والدينى ـ الذى ترعرع فيه ، او من حيث البيئة السياسية والاقتصادية كذلك . وقد اجتهدت فى الربط بين ذلك كله واتجاهات القاضى عياض البحثية والعلمية ، وذلك فى محاولة لتقديم منظور تاريخى دقيق لهذه الشخصية الهامة .

نسب القاضى عياض :

حين ذكر القاضى عياض المكنى بأبى الفضل نسبه لأبنه محمد قال إنه عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى . كما قال إنه لا يدرى هل محمد والد عياض أم بينهما رجل فهو جده .[1] وقد ذكر القاضى عياض هذا النسب

---

١) محمد بن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ ، ص ٢ .

أيضاً للشيخ أبى القاسم بن الملجوم حين أجتاز مدينة فاس وهو فى طريقه إلى مدينة مراكش عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، حين سأله ابن الملجوم عن نسبه[١] .

أما ابن الأبار المتوفى عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م فقد أورد نسبه لكن نراه قد أسقط عمرون فيما بين عياض وموسى وذكر عمرو ، كما أسقط أيضاً عبد الله فيما بين محمد وموسى[٢] . وحين ذكر ابن خلكان المتوفى عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م نسبه يذكر عمرو بدلاً من عمرون ، كما لم يذكر عبد الله فيما بين محمد وموسى[٣] .

وبناء على ما ذكره عياض لابنه محمد فقد استقر أجداده قديما بالأندلس فى مدينة بسطة Baza [٤] ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، كما كان لهم استقرار فى القيروان ، سواء أكان ذلك قبل استقرارهم فى الأندلس أم بعد ذلك [٥] ، وإن كان الباحث يرجح أن أجداد القاضى عياض بدأ استقرارهم أولاً فى القيروان مع بدء الاستقرار العربى فى تلك المدينة عقب تأسيسها ، أو مع استمرار التدفق العربى إليها للاستيطان مع استمرار حملات استكمال فتح بلاد المغرب ، وفى خلال عصر الولاة . فمدينة القيروان استوطنتها عائلات عربية تنتمى إلى سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان[٦] . ومن القبائل القحطانية التى

---

(١) المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض ، الجزء الأول تحقيق مصطفى السقا وأخرين ، الرباط ١٩٧٨ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٩ ، ص ٣٠١ .

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٨، جـ ٣، ص ٤٨٣ .

(٤) بسطة مدينة بالأندلس بالقرب من وادي أش ، وهي من كورجيان ومشهورة بالمياه والبساتين ، ولذلك فقد كانت حسنة الوضع أهله حصينه ذات أسوار ، أنظر : الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ ، ص ١١٣ .

(٥) ابن عياض : مصدر سابق ، ص ٢ .

(٦) اليعقوبي : البلدان ، النجف ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، حسين مراد ، العرب في مدينة القيروان ودورهم الثقافي حتى نهاية عصر الولاة ، بحوث في مجلة الدراسات الأفريقية رقم ٤٣ ، عام ١٩٩٥ ، ص ٣٠ وما بعدها .

استوطنتها قبيلة يحصب التى ينتسب إليها القاضى عياض ، فقد كانت لهم خطة فى تلك المدينة تسمى حارة يحصب[١] . وبعد أن مكثوا فترة من الزمن سواء كانت قصيرة أو طويلة انتقل أجداده إلى الأندلس وسكنوا مدينة بسطة ومنها انتقلوا إلى مدينة فاس ، وأخيراً استقروا فى مدينة سبتة .

بدأ استقرار أجداد القاضى عياض فى سبتة فى عهد جد أبيه عمرون[٢] بعد دخول الفاطميين بلاد المغرب ، ويرجع السبب فى ذلك أنه كان له ولآبائه نباهة وشهرة بمدينة فاس ، كما كانوا من أعيان تلك المدينة . ولذلك حين أخذ المنصور بن أبى عامر رهناً من أعيان فاس ، أخذ منهم أخوى عمرون : عيسى والقاسم ، فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليكون قريباً من أخبارهم بمدينة قرطبة Cordova واستحسن سكنى هذه المدينة[٣] .

وإذا كان عمرون هذا هو أول من استقر من أجداد عياض فى سبتة فإن المصادر المتاحة لا تعين فى معرفة بدء هذا الاستقرار ، ولذلك فإننا نعتمد على بعض المعطيات التى أوردها ابن القاضى عياض المتوفى عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م لتحديد التاريخ التقريبى لبداية الاستقرار . وأول هذه المعطيات أنه يقول إن الاستقرار بدأ بعد دخول الفاطميين بلاد المغرب ، أى بعد عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م . ففى هذا العام وصلت جيوش القائد الفاطمى جوهر الصقلى مدينة فاس وقتل خلقاً كثيراً[٤] . وثانى هذه المعطيات أن ابن القاضى عياض يقول إن عمرون خرج من فاس بعد أن أخذ المنصور بن أبى عامر رهناً من أعيان فاس ، كان من بينهما أخوى عمرون ، فخرج إلى سبتة ليكون بالقرب من أخويه فى قرطبة وتذكر المصادر أن حملة ابن أبى عامر التى وصلت مدينة فاس كانت فى عام ٣٨٧ هـ /

---

(١) عياض : تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تحقيق محمد الطالبي ، نشر الجامعة التونسية ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٧١ .

(٢) عمرون بن موسى بن عياض كان رجلاً خيراً صالحاً من أهل القرآن ، غزا مع المنصور بن أبي عامر غزوات كثيرة . ابن عياض ، مصدر سابق ، ص ٢ ، ٣ .

(٣) ابن عياض : مصدر سابق ، ص ٢،٣ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ، الطبعة الثانية ١٩٩٩ ، ص ١٢٤ .

٩٩٧ م بقيادة مولاه واضح ، للقضاء على تمرد زيرى بن عطية المغراوى على المنصور . ونتيجة لعجز واضح فى تنفيذ الأهداف التى خرج من أجلها ، أرسل المنصور جيشاً آخر بقيادة ابنه عبد الملك فى عام ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، ونجح هذا الجيش فى دخول مدينة فاس ، واستمر عبد الملك مقيماً فيها ستة أشهر حتى أواخر العام المذكور ، ولم يلبث أن خرج عائداً إلى قرطبة ومعه رهائن من أعيان فاس ليضمن ولاء هذه المدينة (١) . ويمكن التوفيق بين المعطى الأول والثانى بأن عمرون خرج من فاس بعد حملة جوهر الصقلى التى كانت عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م لكن لم يخرج مع وصول جوهر الصقلى إلى هذه المدينة ، بل ظل مقيماً فيها حتى أخذ ابن أبى عامر أخويه رهناً فى عام ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، فغادرها عمرون فى هذا العام إلى مدينة سبتة ليكون قريباً من قرطبة حيث يقيم أخويه .

استثمر عمرون ـ بعد أن استقر فى سبتة ـ أمواله فى أعمال البر ، فاشترى أرضاً تعرف باسم المنارة ، وبنى فى بعضها مسجداً ، وفى بعضها دياراً حبسها على المسجد ، وحبس باقى الأرض للدفن . ولم يزل منقطعاً فى ذلك المسجد إلى أن توفى سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م وكان قد أنجب ـ قبل وفاته بيسير ـ ابنه عياض ، ثم ولد لعياض ابنه موسى ثم ولد لموسى ابنه عياض فى منتصف شعبان عام ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣م (٢) ، ولذلك يعد عياض بن موسى عربى الأصل ، سبتى الدار والميلاد ، استقر أجداده فى القيروان والأندلس وفاس قبل استقرارهم النهائى فى مدينة سبتة .

أما عن المكانة العلمية لتلك الأسرة ، فإن المصادر المتاحة لا تعين فى الحديث عن هذا الأمر ، فلا نعرف شيئاً عن موسى والد عياض ، ولا جده عياض،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣م ابن أبي زرع : مصدر سابق ، ص ١٣٢ - ١٣٤ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة علي عبد الرءوف وآخرين ، منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٤٨١ .

(٢) ابن عياض : مصدر سابق ، ص ٣ ، المقرى : أزهار الرياض ، حـ ١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

وجد أبيه عمرون ، أول من استقر فى سبتة . لكن نرجح أن هذه الأسرة كانت ذات شأن فى مجال العلم ، يشهد على ذلك المكانة العلمية لصاحب هذه الدراسة . فالوراثة تلعب دوراً هاماً فى توجيه السلوك الذى لا يمكن أن يتحرر مطلقاً من كل ماله إرتباط وثيق بالأسرة .فسلوك القاضى عياض نحو العلم والثقافة ، ورغبته الملحة فيهما ورحلته إلى الأندلس من أجلهما ، واتصاله بعلماء المشرق الإسلامى سلوك مكتسب من الأسرة التى نشأ فيها .

أما مجتمع سبتة الذى نشأ فيه من الناحية السياسية والجغرافية والاقتصادية ، لارتباط هذا المجتمع بنشأته وتكوينه العلمى . ولذلك سنبدأ بتناول الحياة السياسية لمدينة سبتة ، وليس الغرض من هذا العرض استعراض التاريخ السياسى لهذه المدينة فى فترة الدراسة ، إنما الهدف هو التعرف على أهم سمات الحياة السياسية وأثر ذلك على القاضى عياض .

أولاً: الحياة السياسية فى سبتة وأثرها فى تفرد القاضى عياض ونبوغه :

أدى قيام الخلافة الفاطمية فى الشمال الأفريقى كقوة كبرى مناوئة للخلافة الأموية بالأندلس إلى حدوث صراع ونزاع بين الخلافتين ، إذ لم يقف العاهل الأموى عبد الرحمن الناصر - الذى تلقب بالخلافة عام ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م - مكتوف اليدين أمام الأطماع الفاطمية التى قلصت النفوذ الأموى الأندلسى فى الشمال الأفريقى ، خاصة بعد أن بدأ الفاطميون يفكرون فى مد نفوذهم إلى الأندلس بأرسال أعداد من الدعاة المهرة المخلصين للمذهب الشيعى ليمهدوا الطريق أمام الغزو الفاطمى بالدعاية وبث الأفكار الشيعية فى ربوع الأندلس(١).

---

(١) لمعرفة المزيد عن الأطماع الفاطمية في الأندلس ، أنظر : أحمد مختار العبادي سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ، عدد ١ ، ٢ ، مدريد سنة ١٩٥٧ ، ص ١٣ وما بعدها ، محمود علي مكي : التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، مجلد ٢ ، العدد ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ، ص ١٩ وما بعدها ، عبد العزيز فيلالي : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، ص ١٢٧ وما بعدها .

ولذلك قام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦٢ م) بإجراءات وقائية سريعة لمواجهة الفاطميين والحد من انتشار نفوذهم ومذهبهم . فأتخذ سياسة اصطناع رؤساء القبائل المغربية ، ولا سيما مغراوة وباقى فروع قبيلة زنانة ، التى أيدته تأييداً مطلقاً[١] ، كما حاول أن يكسب ولاء بعض أمراء الدويلات القائمة فى الشمال الأفريقى آنذاك مثل أمراء بنى صالح حكام نكور[٢].

ولم يكتف عبد الرحمن الناصر عند حد التحريض والنشاط العدائى ضد الفاطميين ، بل تعدى ذلك إلى احتلال بعض الثغور الواقعة على الساحل المغربى والمواجهة للشاطئ الأندلسى الجنوبى وذلك بالاستيلاء على مدينة سبتة عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م[٣] ، ومنذ ذلك الحين أصبح حاكمها يعين من قبل الأمويين فى الأندلس .

سبتة تحت حكم الحموديين :

بعد أن خضعت سبتة للأمويين فى الأندلس ، لم تكن هناك أحداث تذكر تخص تلك المدينة إلا فى بداية القرن الخامس الهجرى ، حين تولى سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين (٤٠٣ - ٤٠٧ هـ / ١٠١٢ - ١٠١٦) أمر الخلافة الأموية بالأندلس ، فولى قائده على بن حمود العلوى حكم سبتة وطنجة عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م لتفانيه فى خدمته .[٤] إلا أن والى سبتة كان مطلعاً على أحوال الأندلس ، وما آل إليه أمره من فوضى ، حتى عجز الخليفة سليمان عن

---

(١) مجهول: نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، نشر ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٣٤، ص ٤ .

(٢) عبد العزيز فيلالي : مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

(٣) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ٢ ، ٢٠٤ .

(٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٩٠ ، ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ١١٣ . ٦ الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٤ .

ضبطه فبدأ يتطلع للخلافة . ولذلك اتجه إلى الأندلس ونجح فى هزيمة جيوش سليمان المستعين الذى قتل عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وأعلن على بن حمود نفسه خليفة فى ذلك العام ، وظل خليفة لمدة عام ، إذ قتل على يد الغلمان الصقالبة عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م [١] .

أما أمر سبتة فقد تولاه يحيى بن على بن حمود (٤٠٧ - ٤١٢ هـ / ١٠١٦ - ١٠٢١ م) بعد خروج أبيه إلى الأندلس ، إلا أن يحيى نازع عمه القاسم بن حمود فى خلافة قرطبة ونجح فى مسعاه عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م ، فحكم سبتة أخوه إدريس بن على بن حمود (٤١٢ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٥ م)[٢] . ولما قتل يحيى بن على المتولى أمر قرطبة عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، خاطب مدبراً أمر بنى حمود وهما أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنّة ، ونجا الخادم الصقلبى أخاه إدريس بن على حاكم سبتة وطنجة واستدعياه ، وبايعاه بالخلافة فى مالقة،[٣] على أن يجعل حسن ابن يحيى بن على بن حمود والياً على سبتة فتولاها فى الفترة

(٤٢٧ - ٤٣١ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٣٩ م) [٤] ، وانتهت ولايته بموت إدريس ابن على . إذ أن نجا الخادم الصقلى وكان بسبتة استخلف عليها من وثق به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة Malaga ، وهناك تمت مبايعته بالخلافة [٥] .

صارت سبتة يعهد بها إلى الصقالبة فى الفترة من ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م إلى ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م بعد ما كان يتولى حكمها مباشرة أمراء بنى حمود . ثم

---

(١) الضبي : مصدر سابق ، ٢٧ ، المراكشي : مصدر سابق ، ص ٩٨ .

(٢) المراكشي : مصدر سابق ، ص ٩٩ ، ١٠١ .

(٣) مالقة مدينة بالأندلس على شاطئ البحر الذي يقع في قبليها ، قصبتها في شرقي المدينة ولها سور صخر ولذلك كانت في غاية الحصانة ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٤) المراكشي : مصدر سابق ، ص ١١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

تخلصت سبتة من كابوس هؤلاء الصقالبة الطغاة السفاكين ، [1] حين تولى أمر الأسرة الحمودية إدريس بن يحيى الذى تمت مبايعته بمالقة سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م . إذ خرج من مالقة إلى سبتة ، وقضى على حكم الصقالبة ، ولى عليها رجلين من برغواطة[2] من عبيد أبيه اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سكوت ، حكم الأول مدينة طنجة ، أما الثانى فتولى أمر سبتة . ثم حدث صراع بين الاثنين انتهى لصالح سكوت ، وقتل رزق الله عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ ، وبذلك أصبح سكوت الحاكم المطلق والأوحد لسبتة وطنجة ، ودعا للخليفة العباسى وضرب النقود باسمه ، وجعل ابنه العز بهاء الدولة ولى عهده[3] . وكانت دولة بنى حمود نفسها فى مالقة قد سقطت قبل ذلك بأربعة أعوام ، مما شجعه على اتباع هذه السياسية . لكنه لم يلبث أن انشغل فى صراع مع المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية Sevilla[4] لرغبة الأخير فى الاستيلاء على سبتة وانتهت المعارك لصالح سكوت[5] . وما كاد ينتهى من القضاء على أطماع حاكم إشبيلية حتى تعرضت سبتة لخطر داهم هو خطر المرابطين .

الفتح المرابطى لمدينة سبتة :

بسبب سوء أحوال الأندلس وطغيان الفونسو السادس Alfonso VI عليها ، تواترت الكتب والرسل على أمير المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ – ١١٠٦ م) تستحثه على الجهاد . وكان من أكثر ملوك

---

(١) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ، ص ٤٠ .

(٢) برغواطة قبيلة تنسب إلى قبائل المصامدة ، استقرت في منطقة تامسنا التي تقع بين نهري أم الربيع ونهر أبي رقراق ، أنظر : الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ .

(٤) إشبيلية مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة ثمانون ميلا ، وهي مدينة قديمة أزلية وهي كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وسوقها عامرة ، يصدر منها الزيت إلى المشرق والمغرب ، أنظر : الحميري : مصدر سابق صـ ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) محمد بن تاويت : مرجع سابق ، ص ٤٢ .

الطوائف سعيا لطلب لنجدة ملك إشبيلية والجزيرة الخضراء Algeciras المعتمد بن عباد ، نتيجة لما ذاقته دولته من عسف هذا الملك النصرانى ، ولذلك أرسل فى عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز إلى بلاد الأندلس برسم الجهاد ونصر البلاد . فقال له : « لا يمكننى ذلك إلا بعد أن أتملك سبتة وطنجة » فعرض عليه ابن عباد أن تسير جيوش المرابطين إليها وتحاصرها من البر ، ويقوم هو بأساطيله ليحاصرها من البحر . وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م بدأ يوسف بن تاشفين العمل للقضاء على دولة سكوت البرغواطى فى سبتة وطنجة ، وفى هذا العام نجح قائده صالح ابن عمران فى فتح طنجة بعد مقتل سكوت البرغواطى وهزيمته ولم يبق إلا سبتة وكان عليها يحيى بن سكوت البرغواطي[1] .

ونتيجة لاستمرار سوء أحوال الأندلس ورد على يوسف بن تاشفين كتاب آخر من المعتمد بن عباد فى أواخر سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م يخبره بحال الأندلس وما آل إليه من تغلب العدو على أكثر ثغوره ومدنه ، وسأله العون والنصرة . فأجابه يوسف : « إذا فتح الله لى سبتة وصلت بكم فبذلت فى جهاد العدو الجهود » . [2] واستمر عدوان الفونسو السادس على بلاد الأندلس ، إذ أغار عليها وأخذ يقتل ويسبى ، ويفسد ويخرب فلما رأى ذلك أمراء الأندلس اتفق رأيهم على مكاتبه يوسف بن تاشفين يستنصرونه . لذلك بعث ولده المعز إلى سبتة فى جيش عظيم عام ٤٧٧ هـ ، فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها فى شهر ربيع الأول من هذه السنة / يوليو ١٠٨٤م وكتب إلى أبيه بالفتح ففرح به. ودخل يوسف بن تاشفين المدينة وأصلح أحوالها وأسطولها ، بعد ذلك خرج منها فى جيش ضخم متجهاً إلى الأندلس لمواجهة الأسبان وما قام به ألفونسو السادس من إفساد لأحوال العباد والبلاد . والتقى الجيشان فى الزلاقة من أحواز

---

(١) ابن ابي زرع : مصدر سابق ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

بطليوس Badalos يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م وانتصر المرابطون[١] ، وتخلصت الأندلس من براثن العدو الذى أحاط بها ، وقدر للإسلام بعدها أن يستمر فى الجزيرة قرونا أخرى .

ثم جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مرتين إلى الأندلس الأولى فى عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م لأصلاح أحواله ، ولمواجهة خروج ألفونسو السادس وتعديه على المسلمين[٢] . أما الثانية فكانت فى عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حينما حاز من سبتة وقضى على ملوك الطوائف الذين كانوا قد أقاموا إمارات متناحرة بعضها يستعين بالأعداء ضد البعض الآخر ، حتى كادت دولة الإسلام أن تتصدع فى تلك البلاد ، وبالقضاء على هؤلاء الملوك توحدت البلاد تحت راية المرابطين[٣].

أصبحت سبتة تحت حكم المرابطين ككل مدن المغرب الأقصى تتمتع بالراحة والسكينة ، بفضل جهود يوسف بن تاشفين التى نجحت فى توحيد المغرب والأندلس وجعلهما كياناً سياسياً واحداً ، على أية حال تخلصت سبتة من التمزق السياسى الذى عاشته أثناء فترة حكم أمراء الحموديين ، وحكم الصقالبة والبرغواطيين ، ونعمت المدينة بالأمن والطمأنينة .

لقد شاهد عياض وهو فى صباه جهود المرابطين وهم يوطدون سلطانهم فى سبتة ، كما شاهد أيضاً بحكم - موقع مدينته - جيوش المرابطين تزحف من مدينته إلى الأندلس لإخماد شوكة نصارى أسبانيا ، والقضاء على ملوك

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن معركة الزلاقة أنظر : المراكشي : مصدر سابق ، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، ابن أبي زرع : مصدر سابق ، ١٨٤ - ١٨٩ ، الحميري : مصدر سابق ، ص ٢٨٧ - ٢٨٩ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية الطبعة الأولى ١٩٩٥ ، جـ ٤ خاض المرابطين ، ص ٢٩٩ - ٣١٦ .

عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٦٣٧ - ٦٤٢ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وآخرين ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ ، ٦٦ - ٧٠ .

(٣) ابن أبي زرع : مصدر سابق ، ص ١٩٤ وما بعدها ، مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧١ - ٧٧ .

الطوائف. ومما لا شك فيه أن هذه الروح الجهادية التى بثها المرابطون، وأعانتهم فى تحقيق الوحدة السياسية للمغرب والأندلس ، قد تركت أثرها فى شخصية القاضى عياض الذى اتخذ من العلم وسيلة لرفع راية الإسلام فى مجال الثقافة والعلوم الإسلامية .

ولقد أسهمت جهود المرابطين السياسية والعسكرية فى تحقيق الأمن والاستقرار فى كافة ربوع المغرب والأندلس ، وخاصة مدينة سبتة التى تدفق عليها العلماء من مدن المغرب والأندلس وأخذ عنهم عياض فنون العلم والمعرفة . فعلى سبيل المثال وفد من مدن المغرب إليها القاضى أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي(٤٥٨ - ٥١٣ هـ / ١٠٦٥ - ١١١٩ م) ، أصله من نكور،(١) أخذ عنه القاضى عياض الفقه وأصوله(٢) . كما جالس القاضى عياض الفقيه أبا على الحسن بن عبد الأعلى الكلاعى الصفا قسى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م فترة سكناه سبتة وانتفع به(٣) . كما تلقى القاضى عياض دروسه فى الأدب والنحو فى مدينته على يد الشيخ الصالح أبى على الحسن بن على بن طريف النحوى التاهرتى المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م(٤) .

أما مدن الأندلس فقد وفد منها إلى سبتة كثيرون من العلماء أخذ عنهم القاضى عياض ، منهم على سبيل المثال أبو عبد الله محمد بن عمر الزبيدى

---

(١) تكور : مدينة بالمغرب بقرب مدينة مليلة ، بينها وبين البحر نحو عشرة أميال وقيل خمسة أسواقها عامرة كثيرة البساتين : أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) عياض : الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق ماهر زهير ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢ ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ابن الآبار : المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) القاضي عياض : الغنية ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

النحوى المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، وهو من أهل إشبيلية[١] . ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن سعيد النحوى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وهو من أهل قرطبة[٢] . ومن طليطلة Toledo [٣] وفد على سبتة الشيخ الخطيب أبو عبد الله محمد بن على بن محمد الأردى المتوفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م[٤] . أما خلف بن يوسف بن فرتون النحوى المتوفى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، فقد قدم إلى سبتة من شنترين Santaren [٥] وجلس فى جامعها للإقراء[٦] . وهكذا اقترن التقدم فى حياة القاضى عياض من الناحية الثقافية بنجاح المرابطين فى فتح سبتة ودعم سلطاتهم فى المغرب والأندلس .

قام بأمر المرابطين بعد وفاة يوسف بن تاشفين ابنه على المولود فى مدينة سبتة عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م وتقلد بها عهد أبيه ، وامتد حكمه من عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م إلى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وكانت البلاد ساكنة والرعية آمنة نتيجة انقطاع الثوار ، واجتماع الكلمة [٧] .

كان القاضى عياض يكبر الحاكم المرابطى على بن يوسف بسنة واحدة فكان للتقارب العمرى بين الاثنين أثره الكبير فى توطيد العلاقة بينهما ، فشمل

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

قرطبة قاعدة الأندلس ومستقر خلافة الأمويين ، وهي على نهر عظيم عليه قنطرة ، وأحواز قرطبة تنتهي في الغرب إلى أحواز إشبيلية ، وتختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان . أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٤٥٦ - ٤٥٨ .

(٣) طليطلة : بينها وبين وادي الحجارة خمسة وستون ميلا ، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل وإلى بلنسية تسع مراحل وإلى البحر الشامي أيضاً تسع مراحل وهي حصينة لها بساتين وأنهار ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٣٩٣ - ٣٩٥

(٤) القاضي عياض : الغنية ، ص ٧٦ .

(٥) شنترين مدينة بالأندلس معدودة في كور باجة بينها وبين بطليوس أربع مراحل، لها بساتين كثيرة وفواكه، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٣٤٦ .

(٦) القاضي عياض : الغنية ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٧) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٩٧ ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص ٦١ .

العاهل المرابطى القاضى عياض برعايته وعنايته ، ولم تشغله سياسة الدولة المرابطية تجاه الأندلس[1] ، عن الاهتمام بالعلم والعلماء ، فنراه يتصل بالقاضى عياض حين رأى نجابته فى المجال الثقافى ، ويحثه على الذهاب إلى الأندلس لاستكمال دراسته ، وكتب بشأنه كتاباً إلى قاضى قرطبة أبى القاسم بن حمدين (٤٣٩ - ٥٠٨ هـ / ١٠٤٧ - ١١١٤ م) يوصيه به ، ويحضه على رعايته وإعانته . ومما يؤكد ارتفاع منزلة القاضىْ عياض عند على بن يوسف ما ورد فى رسالته إلى قاضى قرطبة إذ يقول : وله - يقصد عياض - عندنا مكانة حفية تقتضى مخاطبتك بخبره ، وإنهاضك إلى قضاء وطره ، وأنت إنشاء الله تسدد عمله ، وتقرب أمله ، وتصل أسباب العون له »[2] .

خرج عياض بن موسى إلى الأندلس فى طلب العلم لخمس بقين من المحرم عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م يحمل توصية أمير المسلمين على بن يوسف ، وعاد إلى سبتة فى السابع من جمادى الآخرة من عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[3] . وقد أنجز ما كان يأمله فى هذه المدة القصيرة ، وعاد علماً شامخاً من أعلام الحضارة الإسلامية .

وإذا كانت الأوضاع السياسية المستقرة التى سادت بلاد المغرب والأندلس بوجه عام ، وسبته بوجه خاص لها أثرها فى تفرد القاضى عياض وتقدمه فى مجال العلم والثقافة ، فإن مجتمع سبتة بأحواله الجغرافية والاقتصادية كان له نفس التأثير والأثر .

ومن ثم لا يخفى علينا تأثير مدينة سبتة موطنه فى تفرده ونبوغه ، فالإنسان نتاج مجتمعه ، ولذلك سنعرض للظروف الجغرافية وبالتحديد الموقع

---

(١) عن جهود علي بن يوسف في الأندلس وحملاته أنظر : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق حسين يوسف ، مكتبة المنار ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ ، ص ٣٢٨ .

(٣) محمد بن عياض : مصدر سابق ، ص ٦ ، ص ١٠ .

الجغرافى والأحوال الاقتصادية لسبتة منذ ميلاد القاضى عياض حتى نهاية المرحلة التعليمية فى حياته ، أى حتى أصبح أفضل علماء المغرب والأندلس .

ثانياً : المجتمع المحلى لسبتة :

تعد سبتة شبة جزيرة مطلة على البحر المتوسط ، فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات هى الشرق والشمال والجنوب ، أما جهة الغرب فالمدينة تتصل بالبر بواسطة برزخ ارضى يفصل البحرين بما لا يزيد عن رمية سهم[١] . ويطلق على هذا البرزخ مضيق جبل طارق الذى يصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى ، وطول هذا المضيق الذى أطلق عليه البكرى بحر الزقاق أثنا عشر ميلا ،[٢] ويقع بحر الزقاق فى شمال المدينة ، أما البحر الذى يقع جنوب المدينة فيسمى ببحر بسول وهو مرسى حسن . وسبتة فى موقعها هذا تقابل فى الأندلس مدينة الجزيرة الخضراء[٣] ، وعرض البحر بينهما ثمانية عشر ميلا[٤] .

وقد نعمت مدينة سبتة بفضل موقعها الجغرافى بالأمن الذى يعد من أهم مقوماتها ، فالبحر الذى يحيط بالمدينة من ثلاث جهات منحها حدوداً طبيعية منيعة جعلها تنمو وتزدهر فى كافة مجالات الحضارة ، ولاستكمال السياج الأمنى للمدينة كان لابد من بناء سور ضخم محكم البناء فى الجانب الغربى للمدينة المتصل باليابس ، وقد بنى هذا السور فى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) . ويتكون هذا السور من

---

(١) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ .

(٢) المسالك والممالك : تحقيق أدريان فان ليوفن ، واندري فيري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٣) الجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م وهي أقرب مدن الأندلس محازا إلى بر العدوة ولها مرسى من أيسر المراسي ويحاذية مرسى مدينة سبتة ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٧ ، ٥٢٨ .

تسعة أبراج ، ويوجد الباب الوحيد للمدينة من جهة الغرب بالبرج الأوسط . وأمام هذا السور بنى سوراً ارتفاعه يكفى لاخفاء رجل ، ويحيط بهذا السور خندق عميق عريض عليه قنطرة من الخشب(١) .

وإذا كان الموقع الجغرافى الممتاز لمدينة سبتة جعلها تنعم بالأمن كما سبق القول ، فقد ساعدها أيضاً فى أن تكون من المدن العريقة فى القدم(٢) ، وساعدها فى أن تكتسب أهمية كبرى فى الفترة الزمنية موضع للدراسة بناء على وصف كل من البكرى المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م والادريسى المتوفى عام ٥٨٨ هـ / ١١٦٤ م . فالمدينة - يفضل موقعها الجغرافى - ارتبطت بشبكة من المراسى الساحلية ، ساعدت بالطبع على الاتصال بكل جهات الشمال المغربى من طنجة إلى الريف وسواحله .كما كانت لها خطوط اتصال عديدة مع أقطار البحر المتوسط الواقعة شمالاً ابتداء من الأندلس التى ارتبطت بها بروابط خاصة وانتهاء إلى شرقى البحر المتوسط حيث نجد السفن تنطلق منها حتى تصل إلى الإسكندرية(٣) . وهكذا ارتبطت سبتة بفضل موقعها الجغرافى بالمراكز الثقافية التى تقع جنوب البحر المتوسط ، والمراكز الثقافية التى تقع شمال هذا البحر ، واستقبلت العلماء والفقهاء والأدباء بل والتجار الحاملين للعلم والثقافة من كل تلك الأنحاء .

فمن التجار الذين قدموا إلى سبتة وكانوا علماء والتقى بهم القاضى عياض وأخذ عنهم على بن أحمد بن على بن عبد الله الربعى المقدسى التاجر المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ويقول عنه القاضى عياض : « حدثنى بأشياء ، وأجازنى جميع روايته عن شيوخه أبى إسحاق الشيرازى وأبى بكر الخطيب وأبى الفتح

(١) البكري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠.

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٣) محمد زنيبر : محور فاس سبتة وأهميته في العصور الوسطى ، بحث نشر في ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ ، ص ٣٢٣ .

نصر المقدسى منها كتاب البخارى ، ومصنف أبى داود وسنن الدار قطنى والموطأ »[1] . والتقى عياض أيضاً فى سبتة بالشيخ التاجر سهل بن على ابن عثمان النيسابورى المتوفى سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م وكانت إقامته بها مدة طويلة ، ويقول القاضى عياض : « حدثنى بأمالى الشيخ أبى بكر أحمد بن محمد بن خلف الشيرازى سماعا منه ، وبكتاب الأربعين حديثاً للحاكم أبى عبد الله ، وبكتاب أصول الفصول لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى » كما حصل عياض منه على إجازة لجميع روايته[2] . وهكذا كانت سبتة دار علم[3] ، بفضل موقعها الجغرافى الهام الذى تحدثنا عنه .

وكما جعلها الموقع دار علم ودار أمن فقد كان له أيضاً أكبر الأثر فى اتساعها وتطور عمرانها . يؤكد ذلك إنشاء ربضيين خارج أسوار المدينة يقع الربض الأول فى الشرق وكانت مساحته كبيرة والبنايات متصلة ويتجلى هذا من وجود حمامات ثلاثة،[4] أما الربض الثانى فكان يقع غرب المدينة متصلاً بالسور الغربى ، وطوله حوالى سبعة آلاف وأربعمائة ذراع [5] .

وقد أسهم هذا التطور العمرانى الذى شهدته هذه المدينة وطبقاً لما ذكره البكرى إلى تنوع عناصرها السكانية ، إذ سكنها العرب والبربر ، لكن البكرى ينسب العرب إلى قبيلة صدف ، أما البربر فقدموا إليها من ناحية أصيلة والبصرة[6] .

---

(١) القاضي عياض : الغنية ، مصدر سابق ، ص ١٨١ ، ابن بشكوال : كتاب الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢) القاضي عياض : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) البكري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٧٩ ، ٧٨٠ .

(٥) جاك كاني : مدينة سبتة في أواسط القرن الخامس الهجري من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري ، مجلة البحث العلمي ، العدد ١٩ ، الرباط يونيو ١٩٧٢ ، ص ٩٨ .

(٦) المسالك والممالك ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠ .

لكن من الصعب القبول بما ذكره البكرى بنسبة عرب سبتة إلى قبيلة صدف ، لأن الوقائع تؤكد تعدد العناصر العربية التى سكنت سبتة ، يشهد على ذلك أن القاضى عياض سبتى الدار والميلاد ، عربى الأصل ينسب إلى قبيلة يحصب الحميرية ، وقد هاجر أجداده إلى سبتة فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى ، إذ توفى جده عمرون أول من هاجر من تلك الأسرة عام ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م[١] .

وبالرجوع إلى برنامج شيوخ القاضى عياض نجد الكثير من أبناء القبائل العربية التى سكنت سبتة ، منهم الفقيه القاضى محمد بن عيسى بن حسين التميمي(٤٢٩ - ٥٠٥ هـ / ١٠٣٧ - ١١١١ م) الذى ينسب إلى قبيلة تميم والذى ولد بمدينة فاس وانتقل به أبوه إلى سبتة وهو شاب وقال عنه القاضى عياض : « أجل شيوخ بلدنا سبتة »[٢] . ومنهم أيضاً القاضى الخطيب عبد الرحمن بن محمد المعافرى السبتى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م الذى ينسب إلى قبيلة معافر[٣] . ومن الأزد سكن سبتة الفقيه عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدى ، وكانت له حلقة بجامع المدينة[٤] . ومن قبيلة لخم استوطن سبتة القاضى أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم (٤٥٨ - ٥١٣ هـ / ١٠٦٥ - ١١١٩ م) وتولى القضاء بها ، وكان يدرس بالمدينة أصول الفقه والدين[٥] . كما استوطن سبتة واتخذها مقاماً من البيت الأموى القرشى الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموى (٤٣٣ - ٥١٧ هـ / ١٠٤١ - ١١٢٣ م) ، وهو من شيوخ سبتة تولى بها القضاء والفتوى[٦] .

---

(١) ابن عياض : مصدر سابق ، ص ٣ .

(٢) الغنية ، ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٢٠ .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٦) الغنية ، ص ٥٨ .

ولا شـك أن هذه التراجم تبين أن سبتة سكنتهـا عناصر عربية تنتسب إلى تميم ، ويحصب ومعافر والأزد ولخم وقريش ، ولم تسكنها قبيلة صدف فقط كما ذكر ذلك البكرى .

أما العناصر البربرية التى سكنت سبتة فإنها تنسب إلى القبائل الغمارية المصمودية ، بالإضافة إلى بعض العناصر البربرية الأخرى من غير مصمودة[١] ، وإذا كان من الصعب عمل إحصاء خاص لسكان تلك المدينة زمن القاضى عياض ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد ارتفاع الكثافة السكانية ، يدعم ذلك ازدهار وتطور عمران المدينة بقيام أحياء جديدة سبقت الإشارة إليها ، كما أسهم فى ذلك التطور أيضاً تنوع أوجه النشاط الاقتصادى لسبتة، فقد كانت «مدينة حط وإقلاع للسفن»[٢].

ثالثاً : النشاط الاقتصادى لسبتة :

نعمت سبتة زمن القاضى عياض بمقومات اقتصادية أسهمت فى إزدهارها تجارياً وصناعياً وزراعياً . أما عن النشاط الزراعى فى المدينة وضواحيها فالمعلومات التى أوردها البكرى والإدريسى - قليلة جداً - وتخص قرية بليونش التى تقع بجوار جبل موسى المنسوب إلى موسى بن نصير، والذى يقع جهة الغرب ويبعد عن المدينة مسافة ميلين.[٣] وقد أعانت المعطيات الطبيعية لهذا المكان على ازدهاره زراعياً فالأرض شديدة الخصب[٤] ، وتوفرت لها المياه اللازمة للرى بفضل وادى يمر بغربى المدينة ويصب فى البحر ، بالإضافة إلى مياه العيون الكثيرة [٥] .

---

(١) إدريس أحمد خليفة : التاريخ المغربي لمدينة سبتة ، مكتبة الأمنية ، تطوان ١٩٨٨ ، ص ٢٤ .

(٢) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢٨ .

(٤) مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق دكتور سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشئون والثقافة العامة بغداد ١٩٨٦ ، ص ١٣٨ .

(٥) البكري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٧٨٣ ، الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ .

ونتيجة لهذه الظروف الملائمة قام نشاط زراعى كبير فى قرية بليونش ، فانتشرت بها المزارع والبساتين التى زرع بها الفواكه وقصب السكر والأترج « البرتقال » . وحملت منتجات هذه القرية الزراعية من الفاكهة إلى سبتة وما جاورها من المدن لوفرة إنتاجها.(١) لكن إنتاج سبتة من القمح والشعير لم يكف حاجة سكانها ، لذلك استوردت هذين المحصولين من ميناء ماز يغن ، وهو من موانى المغرب الأطلسية (٢) .

بالإضافة إلى النشاط الزراعى راجت فى سبتة بحكم موقعها البحرى حرفة الصيد البحرى ، وتعددت أنواع الأسماك التى تصطاد حتى بلغت نحو مائة نوع(٣) . كما اشتهرت المدينة باستخراج شجر المرجان الذى يعد الأفضل من بين أصناف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، وكان يصنع فى المدينة خرزاً ، ويصدر إلى سائر البلاد، وكان أكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان(٤).

وإذا كان البحر قد لعب دوراً هاماً فى توحيد نشاط السبتين نحو حرفة الصيد البحرى على هذا النحو ، فقد وجههم أيضاً للعمل فى نشاط التجارة البحرية . والواقع أن النشاط التجارى لسبتة لم يزدهر بمعزل عن النشاط الزراعى والصناعى . ذلك أنها صدرت فاكهة قرية بليونش بالإضافة إلى نتاج تصنيع المرجان إلى بلاد كثيرة كما سبق القول . والجدير بالذكر أن البكرى الذى تحدث عن هذه المدينة فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى قد أغفل ذكر النشاط التجارى لها ، فلا نكاد نعثر على أية معلومات حول النشاط التجارى لمينائها . بالرغم أن سبتة كانت تمثل نهاية الطريق التجارى الذى كان يمر

---

(١) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ .

(٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧٠ ، ص ١٣٧ .

(٣) الإدريسى : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ .

(٤) المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢٩ .

بسجلماسة[1] وفاس ،[2] كما كانت ترسو بها كل سفينة تبحر فى البحر المتوسط أو المحيط الأطلسى فموقعها أعانها فى ازدهارها كميناء تجارى . يدعم هذا الرأى ما ورد عند الادريسى ، إذ يذكر « أن البحر الذى يلى سبتة فى الجنوب يسمى بحر بسول وهو مرسى حسن » بمعنى أن السفن التجارية كانت ترسو بها[3] .

وبالرجوع إلى بعض المصادر ذات الأهمية الحضارية مثل كتيب التراجم والنوازل نجد ما يؤكد هذا الأمر ، فعبد الحق الباديسى فى ترجمته لأحد الصوفية ما يدل على أن السفن كانت تخرج من ميناء بسول فى سبتة إلى ميناء باديس[4] الواقع فى بلاد الريف[5] ، وإلى جميع مراسى البحر المتوسط الواقعة شماله وجنوبه . كما توضح نازلة أجاب عنها القاضى عياض أن حركة التجارة البحرية بين سبتة وبعض الموانى المغربية الأطلسية مثل ميناء ماز يغن [6] كانت نشطة ، إذ كانت السفن تنقل من الميناء الأخير إلى سبتة القمح والشعير[7] ، ويؤكد ما جاء فى هذه النازلة ما ورد عند ابن سعيد حيث يقول : « ماز غان تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها » [8] .

---

(١) مدينة سجلماسة من أعظم مدن المغرب ، وهي على طرف الصحراء ، مدينة محدثة أسست سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، ولها بساتين وهي كثيرة النحل أنظر : مجهول : الاستبصار ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) جاك كاني : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

(٣) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ .

(٤) باديس مرسى ببلاد الريف تحت جبل غمارة عليه عمارة كثيرة من البربر ومنه تحمل المراكب الطعام أنظر : مجهول : الاستبصار ، ص ١٣٦ .

(٥) المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد إعراب ، المطبعة الملكية ، الرباط ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ ، ص ١٠٣ .

(٦) ماز يغن : مرسى يقع على ساحل البحر المحيط ، أنظر : ابن سعيد ، ص ١٣٧ .

(٧) عياض وولده محمد : مذاهب الأحكام في نوازل الأحكام ، تحقيق محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٨) كتاب الجغرافيا ، ص ١٣٧ .

كما ارتبطت سبتة بعلاقات تجارية مع بعض مدن الأندلس وبخاصة مدينة الجزيرة الخضراء ، التى كانت ميناء حط وإقلاع السفن . ساعد على ذلك أن بينها وبين سبتة مضيق جبل طارق الذى لا يتجاوز ثمانية عشر ميلا (١) . كما كان لسبتة إرتباط تجارى وثيق مع غانة وبلاد السودان الغربى ، فقد صدرت إليها الخرز المصنع من المرجان ،(٢) وفى مقابل ذلك كانت أسواقها تستقبل السلع التى اشتهرت بها تلك البلاد مثل الذهب والدقيق .

وإذا كانت المصادر الجغرافية المتاحة ، والتى تعود للفترة الزمنية للدراسة ، لا تعين فى الحديث عن أسواق مدينة سبتة مع شهرة المدينة التجارية ، فإن نوازل القاضى عياض تذكر أسماء بعض أسواقها . فنجد فى نازلة تتعلق بأحباس أسرة كبيرة فى سبتة هى أسرة محمود بن أبى مسلم الصدفى ، وفيها إحصاء لهذه الأحباس بحدودها نجد فيها أسماء بعض الأسواق التى انتشرت فى سبتة منها سوق العطارين ، وسوق الشقاقين ، وسوق الحجامين ، كما نجد اسم فندق لأحمد بن إبراهيم الزيات ، مما يعنى استقبال المدينة للتجار الغرباء(٣) . وهى نازلة أخرى خاصة بالأحباس نجد اسم سوق الزيت ، ومسجد القطانين(٤) الذى يبدو أنه كان يقع داخل سوق القطانين . وقد أدى وجود هذه الأسواق وغيرها إلى نشاط الحركة التجارية التى أسهمت بدورها فى ثراء سبتة وتجارها ، حتى إن الواحد من هؤلاء التجار كان يشترى أحيانا حمولة السفن الواردة إلى ميناء سبتة بأكملها(٥) . وساعد على ذلك السياسة المالية التى طبقتها الدولة المرابطية وخاصة فى مجال الجباية .

---

(١) الادريسي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٣٩ .

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢٩ .

(٣) نوازل الأحكام ، ص ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

(٥) ابن سعيد : مصدر سابق ، ١٣٧ وما بعدها .

فقد قامت السياسة المالية للدولة المرابطية على أساس محاولة تطبيق الكتاب والسنة فى ميدان السياسة الجبائية ، وهى محاولة منسجمة مع منطق الدعوة التى قامت على أساس المذهب المالكى ، وتعتمد أساساً على نص الكتاب والسنة[١] . فعبد الله بن ياسين حين شرع فى تنظيم شئون المناطق التى فتحت أمر عمالة بإقامة العدل والعمل بالسنة وأخذ الزكاة والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة.[٢]

واستمرت هذه السياسة الجبائية فى عهد يوسف بن ناشفين (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ - ١١٠٦ م) إذ نجد ابن أبى زرع يقول : « لم يوجد فى بلد من بلاده ، ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج عن حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله تعالى به ، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة » .[٣] ونتج عن سياسة الدولة المرابطية فى إسقاط المكوس والقضاء على المغارم المحدثة التى كانت تثقل كاهل التجار والزراع تنشيط الحياة الاقتصادية بوجه عام والحركة التجارية بوجه خاص ، إذ أدت هذه السياسة إلى انخفاض الأسعار ، وظهور فترة من الأمن الاقتصادى والرخاء ، إذ كانت « أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وأمن ، وكثرت الخيرات وعمرت البلاد » [٤].

فى ظل هذا الوضع الاقتصادى المزدهر لسبتة أبصر القاضى عياض نور الحياة ، فالمدينة نعمت بإمكانيات اقتصادية بفضل موقعها الجغرافى الذى وفر لها الشروط اللازمة لازدهار مينائها الذى ارتبط بموانى البحر المتوسط والمحيط

---

(١) الحبيب الجنحاني : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ ، ص ٩٣

(٢) ابن أبي زرع : مصدر سابق ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

الأطلسى . فعرفت سبتة ثراء فى مجالى التجارة والثقافة ، فالمدينة كما استقبلت التجار استقبلت العلماء فى كافة مجالات العلم والمعرفة ، يشهد على ذلك فهرس أسماء شيوخ القاضى عياض الذى يظهر العلماء الذين وفدوا إلى سبتة وأخذ عنهم القاضى عياض العلم ، بالإضافة إلى التجار الذين حملوا التجارة والعلم إليها (١) .

بعد هذا العرض الذى أبرز المجتمع الذى انجب القاضى عياض جاء الدور لإبراز العوامل التى أسهمت فى تفرد القاضى عياض ونبوغه فى المجال الثقافى ، أى التكوين العلمى له .

رابعاً : مصادر ثقافة القاضى عياض :

يعين كتاب الغنية الذى يعرض لفهرس شيوخ القاضى عياض ، بالإضافة إلى كتب الطبقات والتراجم ، فى تحديد المصادر التى أسهمت فى أن يكون القاضى عياض الأفضل من بين معاصريه فى مجال الثقافة . فبالإضافة إلى سبتة التى تعد المصدر الأولى والرئيس لثقافته نهل من مصدرين كان لهما أكبر الأثر فى تقدمه الثقافى هما الأندلس والمشرق الإسلامى ، اللذين كان تأثيرهما واضحاً عليه .

أما المصدر الأول وهو سبتة موطنه ، فقد كانت تعد مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية فى بلاد المغرب ، ذلك أنها احتضنت عدداً غير قليل من رجال الفكر والثقافة من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين بالإضافة إلى الأدباء والنحاة ، وكان لهؤلاء العلماء الفضل فى التكوين الثقافى للقاضى عياض . كما كانت سبتة بحكم موقعها الاستراتيجى قاعدة لاستقبال المفكرين والعلماء وفى كافة فنون العلم والمعرفة القادمين إليها من الأندلس والمغرب بالإضافة إلى المشرق الإسلامى .

---

(١) انظر ص ١٥ ، ١٦ .

ومن أجل شيوخ القاضى عياض بن موسى فى مدينة سبتة الفقيه القاضى محمد بن عيسى بن حسين التميمي(٤٢٩ - ٥٠٥ هـ / ١٠٣٧ - ١١١١ م) الذى كان فصيحاً كثير التأليف حافظاً للفقه . ولشهرته العلمية تلك لازمه القاضى عياض للمناظره فى المدونة والموطأ وسماع المصنفات ، والحصول منه على الإجازة لجميع رواياته .(١)

كما أخذ عياض العلم فى مدينته على يد الفقيه القاضى محمد بن عبد الله ابن محمد الأموى (٤٣٣ - ٥١٧ هـ / ١٠٤١ - ١١٢٣ م) الذى يقول عنه القاضى عياض : « شيخ بلدنا وقاضيه ومفتيه » . فقد تولى قضاء سبتة مرتين : الأولى أيام سكوت البرغواطى ، والأخرى فى أول دولة المرابطين . وكان حافظاً للفقه والفرائض ، كما كان مشاركاً فى التفسير وعلم الناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك من العلوم .(٢)

وقرأ القاضى عياض بن موسى القرآن الكريم وتعلمه على يد الشيخ محمد ابن عبد الله المعروف بالمورورى المتوفى فى حدود عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م والذى تصدر لإقراء القرآن بسبتة ، لأنه كان عالماً فى علم القراءات واختلاف القراء.(٣) وصحب عياض بن موسى فى مدينته الفقيه إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى المعروف بابن الفاسى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م والذى يعد من أهل الفقه والعلم والمعرفة ، ولذلك قرأ عليه الكثير من كتب الفقه والحديث(٤) .

---

(١) عياض : الغنية ، ص٢٧ ، ٢٨ ، المقرى : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص ١٥٩ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ١٩٧٤ ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩ ، ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٥٥ ، جـ ١ ، ٤٠٨ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث ، القاهرة ١٩٧٢ ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٠١ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٦٢

ولما كان إبراهيم بن أحمد البصرى ، أبو إسحاق القاضى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م أحد الفضلاء الإجلاء من أهل سبتة التى تفقه بها وتولى القضاء منها مرتين ، وكان من أعلام المذهب ، فقد ناظره عياض فى المدونة وذاكره[١] . أما الفقيه عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدى ، المتوفى عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م فيعد أحد الحفاظ المدرسين للمذهب المالكى العاملين به ، ولذلك برع فى الفقه وكانت له حلقة علمية بجامع سبتة ، وناظره عياض فى هذا المذهب[٢] ، مما يدل على رسوخ قدم الأخير فى مجال العلم والفقه حتى وهو طالب علم .

ومن أهل سبتة الذين قرأ عليهم عياض بن موسى الأصول وعلم الكلام ، القاضى الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافرى المتوفى عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م فقد تولى الخطابة والقضاء فى سبتة وتخصص فى تدريس الأصول وعلم الكلام ، مما جعل الناس يرحلون إليه للدراسة عليه . [٣] أما الفقيه عبد الغالب بن يوسف ، أبو محمد السالمى المتوفى عام ٥١٦ هـ / ١١٢٥ م فيعد أيضاً من أهل علم الكلام ، فقد كان من الأشاعرة ، وتولى الخطبة وصلاة الجمعة فى سبتة مدة طويلة ، وصحبه عياض بن موسى وأخذ عنه الكثير من مؤلفاته.[٤]

و تلقى عياض دروسه فى الأدب والنحو على يد الشيخ أبى على الحسن ابن على بن طريف النحوى المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١٠٠٧ م عالم سبتة فى النحو قال عنه القاضى عياض : « درّس عُمره النحو ببلدنا وأخذ عنه جماعة »[٥] .

---

(١) عياض : الغنية ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٢٠ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧١ ، ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٤١ ، ابن الآبار : المعجم ، ص ٨١ ، السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنجاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٤ ، جـ ١ ، ص ٥١٣ .

كما كان الشيخ الصالح الزاهد أبو محمد عبد الله بن أحمد التميمى والمتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م من أهل سبتة ، وسمع منه القاضى عياض كتاب « الإخبار عن فوائد الأخبار » من تأليف الشيخ الزاهد أبى بكر محمد بن إسحاق وأجازه له جميعه[١] ، كما التقى القاضى عياض أيضاً فى سبتة بأبى العباس أحمد بن قاسم الصنهاجى وهو من شيوخ أهل العلم والخير ، وروى عنه عياض حديثاً شريفاً [٢] .

وإذا كان القاضى عياض بن موسى استفاد من لقاء علماء سبتة ، فقد استفاد أيضاً من العلماء الذين وفدوا على مدينته من مدن المغرب والأندلس بالإضافة إلى المشرق الإسلامى .

فمن مدن المغرب وفد إلى سبتة اثنان من علماء صفاقس ،[٣] الأول هو الفقيه أبو على الحسن عبد الأعلى الكلاعى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م والذى جالسه عياض فترة سكناه فى سبتة ، وانتفع بعلمه لأنه كان فقيهاً أصولياً متكلماً عارفاً بعلم الفرائض وغير ذلك من المعارف ، [٤] أما الثانى فهو الفقيه الزاهد أبو الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م . وقد التقاه عياض حين وفد على مدينة سبتة ، وكان أبو الطيب من علماء الفقه والكلام ومن أهل البلاغة والنظم والنثر[٥] .

واجتاز سبتة قادماً من مدينة نكور القاضى أبو محمد عبد الله بن إبراهيم ابن قاسم بن منصور اللخمى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م الذى ولى قضاء

---

(١) عياض : الغنية ، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) مدينة صفاقس من مدن إفريقية (تونس الحالية) ، بينها وبين قفصة ثلاثة أيام ، مدينة قديمة عامرة ، لها أسواق كثيرة وعمارة شاملة ويقصدها التجار من الآفاق ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

(٥) الغنية ، ص ٢١٠ .

سبتة ، وكان له مجلس علم بها يحضره الأكابر فى شيوخها . وقد ناظره عياض فى المدونة والموطأ وأصول الفقه والدين[١] .

ومن مدينة طنجة[٢] وفد إلى سبتة الفقيه أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمحون اللواتى المتوفى عام ٤٩١ هـ / ٩٩٧ م والذى يعد من أهل العلم والفقه والأدب فقد تولى الخطبة والصلاة والفتيا فى سبتة ، والتقى به عياض فى بعض جيئاته إليها وقال عنه : « لقيته أول طلبى للأدب ، وحضرت مجلسه » [٣] .

ويعد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الكتامى الفقيه القاضى المتوفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م من بيت علم ، فهو فقيه بن فقيه ، انتقل إلى سبتة من أصيلا [٤] ، ودرس الفقه ، وحدث عياض ببعض الأحاديث . [٥]

أما الأندلسيون فقد وفد عدد غير قليل منهم إلى سبتة من مختلف مدن الأندلس ، فمن مدينة قرطبة وفد محمد بن عبد الرحمن بن سعيد النحوى المقرئ المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وقد أخذ عنه طلاب العلم النحو والقراءات والأدب ، وسمع منه عياض بقراءة غيره الكثير[٦] .

ومنهم أيضاً الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن البراء الجزيرى المتوفى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ببلده الجزيرة الخضراء ، أقرأ النحو والأدب

---

(١) الغنية ، ص ١٥٥ ، ١٦٥ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) طنجة مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر وبينها وبين سبتة ثلاثون ميلا في البر ، ومسافة ما بين طنجة والقيروان ألفا ميل ، وعمل طنجة مسيرة شهر في مثله ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٩٧ ، ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٩٨ ، مجهول : نبذ تاريخية ، ص ٦٦ .

(٤) أصيلا بلد بقرب طنجة، وهي مدينة كبيرة قديمة عامرة أهله كثيرة الخير والخصب وكان لها مرسى مقصود، وهي أول مدن العدوة من جانب الغرب وهي في سهل من الأرض، أنظر: الحميري: مصدر سابق، ص ٤٢ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ابن فرحون : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٦ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ٨٩ .

بسبتة[1] . ويذكر عاض أنه قرأ عليه فى سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م كتاب الكامل لأبى العباس المبرد بالإسناد [2] .

وقد جالس عياض بن موسى فى مدينته سبتة الشيخ الصالح أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الواعظ المتوفى عام ٥٠٠هـ/١١٠٦ م والوافد من شارقة من أعمال بلنسية Valencia[3]،وقد سكن هذا الشيخ سبتة كثيراً وسمع منه عياض[4] ومن الأندلسيين الذين التقى بهم عياض فى سبتة الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى ، نسبة إلى يابرة Evora[5] والمتوفى عام ٥٣٧ هـ/١١٣٣م وهو من الأدباء والعلماء وفحول الشعراء ، سمع منه عياض قصيدته الرائية فى الرثاء[6] ، وأجازه جميع رواياته[7] .

ومن مالقة وفد إلى سبتة الأستاذ أبو الحسين يحيى بن الطراوة النحوى الأديب ، أحد أئمة الأدب والنحو ، جالسه عياض كثيراً وحضر مجالسه فى الأدب والشعر واستفاد منه [8] .

كما التقى عياض فى مدينته بإثنين من علماء مدينة إشبيلية ، هما محمد ابن عمر بن قطرى الزبيدى النحوى ، الذى كان من بيت علم واستوطن أخيراً سبتة وبها توفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، وكان مدرساً للنحو والعربية مع علم بالأصول والعقيدة ، وحدث القاضى عياضاً بكتابه (الفقيه والمتفقه) سماعاً

---

(١) السيوطي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ٧٩ ، ، ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ .

(٣) بلنسية من مدن شرق الأندلس بينها وبين قرطبة ستة عشر يوماً ، مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس بها أسواق وحط وإقلاع بينها وبين البحر ثلاثة أميال أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٩٧

(٤) عياض : الغنية ، ص ١١٤ ، ابن بشكوال ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٧٣ .

(٥) يابرة مدينة من كورباجة بالأندلس ، وهي مدينة قديمة ، وتمتد أحواز باجة فيما حواليها مائة ميل ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٦٥ .

(٦) للإطلاع على القصيدة الرائية أنظر : المراكشي : المعجب ، ص ١٢٩ - ١٤٠ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ١٧١ .

(٨) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٢٣ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٤١ .

منه[1] . أما العالم الثانى فهو القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافرى المتوفى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م التقى بعياض حين اجتاز سبتة فكتب عنه فوائد من حديثه ، وحدثه بكتاب « المؤتلف والمختلف » للدار قطنى بالسند المتصل حتى المؤلف ، كما لقيه عياض أثناء رحلته للأندلس فى إشبيلية وقرطبة[2] .

وسمع عياض فى بلده من الشيخ الخطيب أبى عبد الله محمد بن على بن محمد الأزدى ، أحد أعلام طليطلة تولى الخطبة وصلاة الجمعة بمدينة سبتة إلى أن توفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م[3] .

كما التقى عياض فى سبتة باثنين من علماء شنترين : الأول كان من علماء الحديث وهو أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهرانى المتوفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، دخل هذا العالم سبتة مرات عديدة وقال عنه القاضى عياض : « ناولنى كتب القاضى أبى الوليد الباجى مثل كتاب التعديل والتجريح » وغيرها ، وحدثنى بجميعها عنه[4] . أما الثانى فهو من أئمة النحاة والأدباء ، وهو خلف بن يوسف بن فرتون النحوى المتوفى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م أخذ العلم فى بلده وانتقل إلى سبتة وقام بالإقراء فى جامعها وقرأ عليه القاضى عياض كتب النحو واللغة والأدب[5] .

ومن مدينة سرقسطة[6] قدم إلى سبتة الشيخ على بن يوسف بن موسى الكلبى المتكلم النحوى الذى كان من العالمين بعلم التوحيد والاعتقادات على

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٦٦ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٤) ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، عياض : مصدر سابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٥٧٧ .

(٦) سرقسطة من مدن شمال شرق الأندلس ، وهي قاعدة من قواعد الأندلس وهي من أطيب البلدان بقعة سقطت في يد النصارى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٣١٧ .

مذهب الأشاعزة ، كما كان عالماً بالنحو والأدب . [١] وفى فترة سكناه مدينة سبتة قرأ عليه عياض أرجوزته التى ألفها فى الاعتقادات[٢] .

وأيضاً التقى عياض فى بلده بالمحدث الراوية أحمد بن طاهرين على بن شبرين الأنصارى المتوفى عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦ م من أهل دانية Denia[٣] وقد جالسه عياض كثيراً وسمع العديد من تصانيفه فى الحديث النبوى ، منها أطراف الموطأ ورجال مسلم [٤] .

أما الفقيه الراوية أبو عمران موسى بن عبد الرحمن المتوفى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م الذى كان شيخ بلده شاطبةXatva [٥] ومفتيها ، فقد سمع منه عياض حين التقاه فى سبتة كتاب الفصول لأبن عبد البر ، كما حصل منه على إجازة لجميع رواياته[٦] .

وممن سمع منه عياض فى سبتة الخطيب عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد النفزى المتوفى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م ، وهو من مدينة مرسية Marcia[٧] شاركه عياض فى شيوخه وسمع منه مع جماعه فى مدينته[٨].

ومن المشرق الإسلامى وفد إلى سبتة عالمان : الأول قدم من بيت المقدس وهو أبو الحسن على بن أحمد بن على بن عبيد الله الربعى الشافعى التاجر المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م . حدث هذا العالم القاضى عياض بأشياء وأجازة جميع

---

(١) ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٦٨٢ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٢ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ٢٢٦ .

(٣) دانية مدينة بشرق الأندلس على البحر ، عامرة حسنة لها ربض عامر وعليها سور حصين أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١١٨ .

(٥) شاطبة مدينة جليلة بالأندلس قريبة من جزيرة شقر ، حاضرة أهله أنظر الحميري : مصدر سابق ، ٣٣٧ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١٩٥ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٧) مرسية مدينة بالأندلس منها إلى قرطبة عشر مراحل ومنها إلى بلنسية خمس مراحل ، لها ربض عامر آهل ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

(٨)عياض : الغنية ، ص ١٥٦ ،١٥٧ ، ابن الآبار : المعجم ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ .

رواياته وتصانيفه[1] . أما العالم الثانى فقد قدم من نيسابور[2] هو الشيخ التاجر سهل بن على بن عثمان المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ، أقام بسبتة مدة طويلة ، وحدث عياضاً بعدة مؤلفات منها كتاب الأربعين حديثاً للحاكم ، وكتاب أمالى الشيخ أحمد بن محمد بن خلف الشيرازى وغيرها[3] .

أما المصدر الثانى الذى نهل منه عياض فهو الأندلس الذى كان يعد فى ذلك الوقت مركزاً رئيساً من مراكز العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى ، ولذلك رحل إليه القاضى عياض بعد أن قرأ فى بلده القراءات والفقه وأصوله والحديث وعلومه وعلم الكلام ، واللغة العربية وآدابها . كما تفقه فى المذهب المالكى حتى أصبح فقه مالك من أهم المكونات الفكرية التى صاغت فكره . إذن قبل أن يرحل عياض إلى الأندلس كان له حظ وافر من العلم [4] فلماذا رحل ؟ إجابة هذا السؤال نجدها فى كتاب أمير المسلمين على بن يوسف إلى ابن حمدين قاضى قرطبة يوصيه بعياض فيقول له : « وعنده دواوين أغفال ، ولم تفتح لها على الشيوخ أقفال ، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود مُتونها » [5] . وهو كلام يدل على مدى سعة علم القاضى عياض آنذاك . لكن يبقى السؤال : لماذا رحل أذن إلى بلاد الأندلس ؟

لقد رحل عياض إلى الأندلس لتصحيح المتون المروية، والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها بأصحابها ، والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها . فهذه المادة المروية إذا لم تثبت نسبتها إلى عالم ، لا تصلح أن تتخذ أساساً

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٨١ .

(٢) نيسابور من بلاد خراسان ، بلد واسع افتتحه عبد الله بن عامر في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ / وهي أرض سهلية ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥٨٨ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ .

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة .

للبحث والدرس وبناء أحكام عليها ، سواء كانت هذه الأحكام دينية أو علمية أو أدبية . هكذا كان عياض حريصاً على إكمال وسلامة المنهج العلمى فى النقل والأخذ عن غيره (١)، وذلك من خلال مقابلة كتبه بالأصول الصحيحة(٢) والبحث عن أصول كتب العلماء الخطية المسندة إليهم(٣) .

- ولذلك كانت هذه الرحلة موضع اهتمام الحاكم المرابطى على بن يوسف الذى أوصى قاضى قرطبة الاعتناء بأمره ، وقد ساعدت هذه التوصية عياضاً فى إنجاز ما أمله فى مدة قصيرة فقد كان خروجه من سبتة فى يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ، فوصل قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة ، وأقام فيها مدة عام إذ عاد إلى بلده سبته ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة ، من عام ٥٠٨ هـ ١١١٤ م(٤) .

وأثناء إقامة عياض فى قرطبة التقى بالعديد من علمائها فى كافة مجالات العلم والمعرفة فالتقى بالعديد من فقهاء تلك المدينة ، منهم الفقيه القاضى ابن حمدين ، محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز التغلبى (٤٣٩ - ٥٠٨ هـ / ١٠٤٧ - ١١٩٦) . وهو أول من التقى بهم عياض فى بداية رحلته إلى الأندلس ليسلم له رسالة أمير المسلمين على بن يوسف المتضمنة التوصية به . ويعد ابن حمدين من أجل علماء الأندلس فى ميدان الفقه والأدب تولى قضاء الجماعة للمرابطين عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م إلى أن توفى . وقد جالسه عياض كثيراً وسمع عليه الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي(٥) .

---

(١) محمد بن تاويت ، مقدمة كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ، وزارة الأوقاف المغربية ، الرباط ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، ص يا .

(٢) عياض : الغنية ، ص ١٥ ، ٢٦ ، ١٧٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) محمد بن عياض : مصدر سابق ، ص ٦ ، ١٠ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ٤٦ ، المقرى : ازهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ٩٥ وما بعدها .

كما التقى عياض بأبى الوليد القرطبى ، هشام بن أحمد الفقيه المتوفى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وهو أحد كبار فقهاء هذه المدينة ومفتيها وقرأ عليه عياض فى داره العديد من المؤلفات الفقهية (١) .

ومن أكابر علماء قرطبة أبى محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م . وجلس إليه عياض للسماع منه لعلو سنده وصبره على الجلوس والإسماع آناء ليلة وأطراف نهاره ، وقرأ عليه عياض الكثير من كتب الفقه والحديث(٢) . وممن صحبهم وسمع منهم كثيراً عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم الأموى القرطبى المتوفى عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥م (٣) . كما التقى عياض فى قرطبة بالفقيه الحافظ أبى بكر غالب ابن عطية المحاربى المتوفى عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م الذى قال عنه عياض : « سمعت من لفظه فوائد » (٤) .

أما الفقيه الراوية سفيان بن العاصى بن أحمد بن العاصى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، فقد نشأ ببلنسية ولقبه عياض فى قرطبة وقرأ عليه كتاب « سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن هشام »، بالإضافة إلى كتب الحديث مثل كتاب « صحيح مسلم » (٥) .

كما التقى عياض ببعض علماء الحديث فى قرطبة ، منهم ابن الحاج محمد ابن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المتوفى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م والذى كان كثير الرواية ، ولذلك قرأ عليه عياض بعض كتب الحديث فى داره ، وحصل منه على إجازة لجميع رواياته(٦) كما سمع عياض بعض كتب الحديث وعلومه من الفقيه الحاكم أبى القاسم أحمد بن محمد بن مخلد المتوفى عام ٥٣٢ هـ /

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٢١٧ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٢ وما بعدها ، ابن فرحون : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٩ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ١٢٣ .

١١٣٧ م [١] والتقى عياض أيضاً فى قرطبة مع أبى جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمى المتوفى عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م والذى كان يفهم علم الحديث وروى منه الكثير ، ولذلك صحبه عياض وقرأ عليه بعض حديثه[٢] . وحين التقى عياض فى قرطبة بالشيخ يونس بن محمد بن مغيث الفقيه أبى الحسن المتوفى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م قرأ عليه العديد من كتب الحديث مثل كتاب الأربعين حديثاً للأجرى ، وغير ذلك من المؤلفات [٣] .

وسمع عياض فى قرطبة كتب الأصول والعقائد والفرائض من بعض علمائها ، منهم الفقيه القاضى أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م والذى كان زعيماً فقيهاً وقته ، بصيراً بالأصول ويقول عنه عياض : « جالسته كثيراً وساءلته واستفدت منه وسمعت بعض كتبه تقرأ عليه ، وناولنى بعضها ، وأجازتى سائر رواياته » [٤] ، ومنهم أحمد الزنقى أبو العباس ، الذى يعد من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة فى وقته ، ولذلك جالسه عياض وسأله للاستفادة منه [٥] .

والتقى عياض فى قرطبة بعدد من شيوخ القراء منهم أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجى المقرئ المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م والذى كان يقوم بالإقراء بجامع قرطبة [٦]. ومنهم الخطيب المقرئ خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد زعيم المقرئين بقرطبة المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م ولذلك كانت رحلة

---

(١) عياض : الغنية ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٧٥٦ ، ابن فرحون : مصدر سابق ، ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١١٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، عني بنشره برجستراتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

عياض إليه حيث قرأ عليه بعض كتب القراءات والتفسير والفقه.[١] ومن المقرئين الذين إلتقاهم أيضاً عبد الرحمن بن سعيد بن هارون الفهمى المقرئ المتوفى سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وكان من مدينة سرقسطة ثم رحل إلى قرطبة وبها حدث عياضاً وأجازه جميع رواياته[٢] .

وحرص عياض أيضاً على لقاء علماء اللغة والنحو فى مدينة قرطبة ، فالتقى بالأديب الراوية أبى عبد الله محمد بن سليمان النفزى المتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م وهو علم مالقى الأصل ، سكن قرطبة ، ويعد من أحفظ أهل زمانه للنحو ، [٣] قرأ عليه عياض فى منزله كتب الأدب [٤] . أما الشيخ الكاتب الراوية أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف بن سعد المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، فقد كان عارفاً بالأدب والنحو واللغة والبلاغة ولذلك حصل منه عياض على إجازة فى جميع رواياته[٥] . كما قرأ عياض العديد من كتب النحو والأدب على الأستاذ أبى الحسن على بن أحمد بن خلف الأنصارى النحوى حين لقيه فى قرطبة عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م[٦] . كما كان الوزير اللغوى سراج بن عبد الملك بن سراج الأموى المتوفى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م من دوافع رحلة عياض إلى قرطبة عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م للسماع والقراءة عليه ، فسمع من كتب الأدب والحديث[٧] .

وأخيراً التقى عياض فى قرطبة ببعض العلماء لكنه يذكر أنه لم يسمع منهم مثل عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن مخلد القرطبى الحاكم المتوفى عام ٥١٥

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٨ ، ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ .

(٣) السيوطي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١١٦ .

(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٠ ، ١٠٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٧) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٥٧٦ .

هـ / ١١٢١ م ، [١] والفقيه عبد العزيز بن عبد الله بن محمد ، أبو الأصبغ القرطبى المتوفى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[٢] .

تنقل عياض بين مدن الأندلس للقاء العلماء، فمن مدن غرب الأندلس التى زارها مدينة إشبيلية فالتقى فيها بالشيخ أبى عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الخولانى المتوفى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م والذى حدثه بالموطأ ، كما أجازه جميع رواياته[٣] أما الشيخ الصوفى محمد بن خميس فيعد من أهل غرب الأندلس وكان ملازماً بإشبيلية وأجاز عياضاً كتاب الرعاية للحارث المحاسبي.[٤] كما صحب عياض فترة وجوده فى إشبيلية القاضى محمد بن داود بن عطية العكى القلعى المتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ودرس عليه أصول الفقه[٥] . ومن النحاة الذين التقاهم عياض على بن عبد الرحمن بن محمد التنوخى المتوفى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م فسمع منه كتاب شرح الأشعار الستة لأبى الحجاج يوسف ابن الأعلم[٦] .

وامتدت رحلة القاضى عياض إلى بعض مدن شرق الأندلس للقاء العلماء . ففى مدينة سرقسطة التقى بأجل شيوخ الأندلس عامة وهو القاضى الحافظ أبى على الحسين بن محمد بن فيره بن حيون الصدفى المتوفى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م والذى اتسعت روايته ، وبلغ عدد الكتب التى سمعها عليه عياض ستة وعشرين كتاباً شملت الحديث وعلومه والسيرة والتاريخ [٧] وفى نفس هذه المدينة جلس عياض كثيراً مع الشيخ المقرئ محمد بن عقال وسمع عنه الكثير [٨] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، ١٨٧ . السيوطى : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .

(٧) عياض : مصدر سابق ، ص ١٢٩ ، ١٣٦ ، المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ٩٠ ، ٩٢ .

(٨) عياض : مصدر سابق ، ص ٩٠ .

والتقى عياض فى مدينة شاطبة باثنين من علماء الحديث وسمع منهما الأول هو ابن الصيقل محمد بن على الشاطبى ، (١) والثانى هو الشيخ أبى محمد عبد الله بن محمد بن أيوب الفهرى المتوفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م (٢) .

وفى مدينة بلنسية التقى بشيخ الأدباء فى وقته عالم النحو واللغات والشعر والبلاغة ، أبى محمد عبد الله بن محمد السيد النحوى المتوفى عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، وحصل منه على إجازة لجميع رواياته وتصانيفه .(٣)

أما لقاء عياض بشيخ فقهاء شرق الأندلس ، الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشنى المتوفى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م الحافظ للمذهب ، مع المعرفة بتفسير القرآن الكريم فقد كان فى مدينة مرسية وهو اللقاء الثانى بينهما وكان الأول فى سبتة ، وقد قرأ عليه بعض كتب الحديث وحصل منه على إجازة لرواية جميع مؤلفاته.(٤) .

ويعد أبو العباس أحمد بن عثمان بن مكحول المتوفى عام ٥١٣ هـ/ ١١١٩م من شيوخ عياض وهو من أهل المرية Almeria ،(٥) حدثه بعدد من الكتب مثل كتاب الشهاب للقضاعى وغير ذلك من المؤلفات (٦) .

كما التقى عياض أثناء رحلته العلمية إلى شرق الأندلس بالفقيه أبى بكر محمد بن خلف بن سليمان الأريولى المتوفى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م وقد استفاد هذا الفقيه من معارف عياض ، وحصل منه عياض على إجازة لمؤلفين له على كتاب الصحابة لابن عبد البر وهما كتاب التنبيه وكتاب الذيل(٧) .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ١٥٨ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، العماد الحنبلي : شزرات الذهب في أخبار من ذهب

(٥) ألمرية مدينة بالأندلس محدثة ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ وهي من أشهر مراسي الأندلس وأجل أمصارها وأشهرها ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥٣٧ .

(٦) عياض : مصدر سابق ، ص ١٠١ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨١ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ١١٤ .

ومن علماء لورقة Lorca [1] التقى عياض بالوزير أحمد بن سعيد بن خالد اللخمى المتوفى عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م والذى أجازه جميع رواياته ، من ذلك : كتاب اختلاف الموطأت للدار قطنى وغيرها[٢] .

كما حصل عياض من بعض علماء الأندلس على العديد من الإجازات العلمية التى تسمح له برواية العلم عنهم ، على الرغم من أنه لم يلتق بهم . فقد كتبوا له بالسماح بروايُة علمهم ، منهم الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على المتوفى عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م والذى كتب لعياض من إشبيلية يجيزه جميع رواياته[٣] . ومن نفس المدينة أجازه أيضاً شيخ المقرئين فى وقته القاضى المقرئ شريح بن محمد بن شريح الرعينى المتوفى عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م[٤] .

ومن مدينة سرقسطة كتب بعض علمائها إلى عياض يجيزونه جميع رواياتهم منهم أبو عبد الله محمد بن الفرج[٥] ، وخلف بن خلف بن محمد الأنصارى المتوفى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[٦] ، والشيخ الصالح عبد الرحمن بن عبد الله السرقسطى المتوفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م [٧] .

كما كتب الشيخ الحافظ أبو على الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى المعرف بالجيانى المتوفى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م من قرطبة إلى عياض يجيزه جميع رواياته [٨] . وأيضاً أجازه الشيخ الصالح أبو الحسن خليصى بن عبد الله بن

---

(١) لورقة بالأندلس بينها وبين مرسية أربعون ميلا ، وهي من المعاقل الحصينة وتقع على ظهر جبل وبها أسواق وربض ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٥١٢ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ٨٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ابن فرحون : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

احمد العبدرى ساكن بلنسية المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ [١] وأخيراً كتب إليه من مدينة شاطبة يجيزه جميع رواياته الشيخ أبو عامر محمد ابن حبيب بن عبد الله الأموى المتوفى عام ٥٢٨ هـ / ١١١٣ م[٢] .

هكذا كان لبلاد الأندلس بمدنها المختلفة وعلمائها الكثيرين الذين التقى بهم القاضى عياض ، أثر كبير فى تكوين شخصيته العلمية فى كافة نواحى العلم والمعرفة . وإذا كنا قد انتهينا من الحديث عن المصدرين الأول والثانى من مصادر تكوين شخصية القاضى عياض العلمية ، فقد حان الوقت للحديث عن المصدر الثالث والأخير وهو المشرق الإسلامى .

المصدر الثالث لثقافة القاضى عياض هو المشرق الإسلامى والجدير بالذكر أن عياضاً لم يرحل إلى بلاد المشرق الإسلامى لكنه تأثر بعلومه ومعارفه بواسطة شيوخه من الأندلسيين الذين رحلوا للمشرق ، كما يتضح من تراجمهم التى وردت فى فهرس شيوخ القاضى عياض ، كما نهل من ثقافة المشرق بواسطة المشارقة أنفسهم الذين كتبوا إليه يجيزونه مؤلفاتهم ورواياتهم .

فمن مصر كتب عدد من العلماء يجيزون القاضى عياض رواياتهم ، منهم الأمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهرى المعروف بالطرطوشى ومنها أصله . وقد تفقه هذا العالم فى الأندلس والمشرق واستوطن الإسكندرية وبها توفى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م بعد أن كان قد ألف مؤلفات عديدة فى مسائل الخلاف وأصول الفقه ، ويذكر القاضى عياض أن هذا العالم أجازه جميع رواياته وتصانيفه [٣] . كما أجازه أيضاً من مصر أحد رواتها ومسنديها وهو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الرازى المعروف بابن الخطاب المتوفى عام

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ٦٢ - ٦٤ ، ابن خلكان : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ .

٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م[١] . هذا بالإضافة إلى أبى عبد الله محمد بن المسلم بن محمد بن أبى بكر القرشى المخزومى الصقلى ساكن الإسكندرية والذى كان متقدماً فى علم الكلام ، وصنف فيه كتاب « البيان بشرح البرهان » وأجازه عياضاً مع غيره من الروايات[٢] وممن أجازه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهانى نزيل الإسكندرية والذى يعد من علما الحديث[٣] . كما كتب الشيخ المسند على بن المشرف بن المسلم ، أبو الحسن السكندرى المتوفى عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م إلى عياض يجيزه جميع رواياته [٤] .

كما حصل عياض على إجازات علمية من علماء مكة المكرمة ، منهم الشيخ أحمد بن خليفة بن قاسم بن منصور الملكى الذى أجازة كتاب البخاري[٥] . أما الشيخ أبو سعيد حيدر بن يحيى بن حيدر الجيلى الصوفى المجاور بمكة المتوفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م فقد أجازة جميع رواياته[٦] ، ومنهم الإمام عبد الرحمن بن عبد الصمد النيسابورى الذى جاور بمكة بعد عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ومنها كتب يجيز عياضا جميع رواياته [٧] . وأخيراً أجازه الشيخ المقرئ على بن أبى القاسم بن محمد المهدوى ، وهو من علماء القراءات سكن مكة ومنها كتب إلى عياض يجيزه كتاب الجامع الكبير فى القراءات وهو كتاب من تأليف أبى معشر الطبري[٨] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات طبعة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت ، تشر فرانز شتاينر ، فيسبادن ، جـ ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

ومن مدينة بغداد كتب عبد الواحد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادى الفهرى إلى عياض يجيزه جميع رواياته وذلك سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م[١] . كما كتب عبد الملك بن أبى مسلم بن أبى نصر الهمدانى إلى عياض يجيزه جميع رواياته ، من ذلك كتاب الجمع بين الصحيحين تأليف أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدي[٢] .

هكذا نهل عياض من ثقافة المشرق الإسلامى من خلال الإجازات العلمية التى حصل عليها من علماء مصر ومكة المكرمة وبغداد وهمدان ، بالإضافة إلى من وفد إلى سبتة من علماء المشرق وأخذ عنهم القاضى عياض وسبق الحديث عنهم فى المصدر الأول لثقافته .

خامساً ـ البيئة التعليمية :

كان للعدد الكبير من العلماء الذين التقى بهم القاضى عياض بن موسى أثر كبير فى أن يطلع على العديد من المؤلفات العلمية فى كافة مجالات العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية بالإضافة إلى كتب السيرة والتصوف والتراجم . وتلقى هذه المؤلفات الضوء على الكتب التى شاع تدريسها فى ذلك الوقت والتى كانت تمثل الوعاء الفكرى والثقافى للأمة الإسلامية آنذاك .

١ - فى مجال العلوم الشرعية :

(أ) القرآن الكريم وعلومه :

بدأ عياض قراءة القرآن الكريم وعلومه فى مدينة سبتة على العديد من القراء من أبنائها أو ممن وفدوا عليها ، منهم الشيخ المقرئ محمد بن عبد الله المعروف بالمرورى المتوفى فى حدود ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م والذى تصدر لإقراء

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

القــرآن الكريم بهــذه المدينــة طــوال عـمره ، وكـان عـالماً بالقـراءات واختـلاف القراء ولذلك قرأ عليـه عـياض القرآن الكريم وختـمه عـدة مرات[١] . كـمـا قـرأ القرآن الكريم برواية نافع[٢] وابن كثير [٣] وابن عـامر[٤]. وأبى عمرو الداني[٥] على الشـيخ المقـرئ عبـد الله بن إدريس بن سـهل المتـوفى بسبـتةعـام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م[٦] .

وقرأ عـياض أيضاً فى بلده كتـاب «الهـداية فى القراءات السبع» من تأليف أبى العباس أحمد بن عمار المهدوى المتوفى بعد عـام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وكانت القراءة على الشيـخ المقرئ محمد بن أحمد الأموي[٧]. وقد قرأ عـياض هذا الكتاب أيضاً على القارئ ابن سليمان النفزى المتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م[٨] .

كـما قـرأ عـيـاض علم القراءات على من وفد إلى سبتة مـن قراء الأندلس ، منهم شيخ المقرئين أبـو الحسن على بن محمد بن درى الأنصارى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م والذى قـرأ عليـه القرآن الكريم برواية ابن عـامر ، وحيـن التـقى به عياض اثناء رحلته للأندلس قرأ عليه كتابـه فـى « مخارج الحروف » [٩] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٩٠ ، ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ .

(٢) هـو نـافـع بـن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، أصله من أصبهان ، أخذ القراءة عن جماعة من تابعي أهل المدينة ، ولذلك كان عـالماً بوجوه القراءات ، توفي عام ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م ، أنظر : ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

(٣) ابن كثير هو عـبد الله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبد الدار ، ولد بمكة سنة ٤٥ هـ ولقى عبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ، من أئمة القراء حتى مات سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م ، أنظر : ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .

(٤) ابن عامر هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي ، إمام أهل الشام في القراءات توفي عام ١١٨ هـ / ٧٣٦ م ، أنظر : ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ٤٢٣ - ٤٢٥ .

(٥) أبو عمرو الداني هو عثمان بن سعيد الأموي شيخ مشايخ المقرئين (٣٧١ - ٤٤٤ هـ) له مؤلفات جليلة في القراءات ، عنه أنظر : ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ - ٥٠٥ .

(٦) عياض : مصدر سابق ، ص ١٥٨ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١١ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ٩١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٥٩ - ٦١ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٧٦ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

وقرأ أيضاً عياض فى بلده على أبى الأصبغ عيسى بن محمد بن عبد الله الزهرى المتوفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م كتاب «معانى القرآن» له سماعاً منه، بالإضافة إلى كتاب « الوقف والابتداء »-تأليف ابن النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل الحافظ المقرئ ، المتوفى ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م[١] .

كما قرأ على محمد بن عبد الرحمن بن سعيد النحوى المقرئ القرطبى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م والذى كان يدرس القراءات [٢] .

ومن أثناء رحلة عياض إلى الأندلس التقى بالعديد من علماء القراءات الذين قرأ عليهم وأجازوه . منهم أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجى المقرئ القرطبى المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م وهو أحد شيوخ القراء المتصدرين للإقراء بجامع قرطبة الأعليا السند[٣] . وحين التقى فى قرطبة بالشيخ المقرئ محمد بن سليمان النفزى المتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م حدثه بكتاب «التحصيل لفوائد التفصيل الجامع لعلوم التنزيل»[٤] وفى نفس المدينة أيضاً قرأ كتاب «المفتاح فى القراءات » من تأليف ابن عبد الوهاب على الشيخ أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م [٥] .

واستفاد عياض من لقاء أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخولانى المتوفى عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م حين التقى به فى مدينة إشبيلية ، فقد أجازه جميع رواياته منها ما أجازه أبو عمرو الداني[٦] الذى ألف العديد من كتب القراءات ، منها كتاب «جامع البيان فى القراءات السبع » وكتاب « التيسير » وكتاب « المحتوى فى القراءات الشواذ » [٧] .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ ، عياض : مصدر سابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٨٩ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٧٤١ .

(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ٥٩ - ٦١ ، المقرئ : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٧) ابن الجزري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص٥٠٥ .

كما أجاز على بن أبى القاسم بن محمد المهدوى الذى سكن مكة عياض بن موسى كتاب « الجامع الكبير فى القراءات » ، وكتاب « التلخيص فى القراءات » تأليف أبى معشر الطبرى عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد المجاور بمكة وبها توفى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م[١] .

كما التقى عياض فى قرطبة بعدد من القراء المفسرين ، منهم الخطيب المقرئ المفسر خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد المعروف بابن النحاس المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وقد حدثه « بتفسير النقاش »[٢] المسمى « بشفاء الصدور » بالسند المتصل حتى النقاش.[٣] وفى نفس المدينة قرأ على الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م تفسير عبد الرزاق الصنعاني[٤] سماعاً لبعضه وأجازه لما فاته منه ، وذلك بالسند المتصل حتى المؤلف [٥] .

كما أجاز الشيخ المجاور بمكة أبو سعيد حيدر بن يحيى بن حيدر الجيلى الصوفى عياضاً كتاب « تفسير الثعالبى » لمؤلفة أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبى النيسابورى المتوفى عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م[٦] وقد ألف الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف المعروف بالطرطوشى اختصاراً لتفسير الثعالبى للقرآن الكريم [٧] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٨٣ .

(٢) النقاش هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد الموصلي المتوفي عام ٣٥١ هـ. عنه انظر: الداوودي: طبقات المفسرين، تحقيق عبد السلام عبد المعين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ٣٩١ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٤) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني صاحب التفسير والمتوفي عام ٢١١ هـ / ٨٢١ م ، أنظر : الداوودي : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
عن الثعالبي المفسر أنظر : القفطي : إنباه الرواة على أنباء النجاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٠، جـ ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ومن علوم القرآن الكريم التى أطلع عليها عياض علم الناسخ والمنسوخ[1] . فقد سمع عياض من شيخة الحافظ أبى على الحسين الصدفى كتاب « الناسخ والمنسوخ » تأليف هبة الله سلامة بن نصر بن على البغدادى المتوفى عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م ، سمعه منه بالسند المتصل حتى مؤلفه [2] . كما قرأ عياض كتابا بنفس هذا العنوان على الفقيه أبى محمد عبد الرحمن بن عتاب الخدامى وهو كتاب من تأليف أبى محمد مكى بن أبى طالب القيسى المقرئ المتوفى عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م[3] .

لقد أسهمت الكتب التى أطلع عليها القاضى عياض فى القرآن الكريم وعلومه فى أن يكون من الأعلام فى علم القراءات والتفسير وعلم الناسخ والمنسوخ .

(ب) الحديث وعلومه :

واكب قيام دولة المرابطين ازدهار دراسة علم الحديث نتيجة لظهور عدد كبير من أعلام المحدثين الذين كان لهم عناية كبيرة بالحديث النبوى مكرمة للسنة النبوية . وقد أسهم هؤلاء المحدثون الذين التقى بهم عياض فى سبتة أو أثناء رحلته إلى الأندلس ، فى تفوقه فى هذا العلم رواية ودراية بشكل لفت إليه

---

(١) النسخ في اللغة هو رفع شئ وإقامة آخر مقامة ، أما النسخ في القرآن الكريم فهو إبطال الحكم ، وتكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة،إلا أن المنسوخة لا تعمل بها : مثال لذلك كانت عدة المتوفي عنها زوجها سنة كما في الآية ٢٤٠ من سورة البقرة ((متاعاً إلى الحول غير إخراج)). وقد نسخت هذه الآية بأربعة أشهر وعشر كما في الآية ٢٣٤ من سورة البقرة ((يتربصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشراً)) وهذا العلم يساعد على التعرف على أحكام الشريعة والعمل بها ، وهو علم واجب على العلماء والمتعلمين ، وعلى كافة المسلمين ، لأن الأخذ بناسخه واجب فرضاً ، والعمل به واجب لازم ، والمنسوخ لا يعمل به ، أنظر : دراسة الأستاذ عبد الكبير العلوي المدغري لكتاب الناسخ والمنسوخ للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ١٩٩٢ ، جـ ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

الأنظار ، حتى أصبح من أئمة الحديث فى وقته [١] وأعرف الناس بعلومه [٢] ولذلك قال عنه الذهبى : إنه عالم المغرب الحافظ [٣] . بدأت دراسة عياض للحديث وعلومه فى مدينة سبتة ، وفى أثناء رحلته إلى الأندلس استكمل دراسته لهذا العلم ، واهتم بدراسة علم الحديث دراية ، وهو علم يبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث . فقرأ كتب الصحاح وكتب السنن وغيرها مما سنعرض له .

ومن أجل شيوخه فى هذا العلم القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، وقد لازمه عياض لسماع المصنفات فى علم الحديث سواء كانت بقراءته أو قراءة غيره . ومن أهم هذه المصنفات : كتاب « المسند الصحيح المختصر » تأليف أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م[٤] ، وقد أجاز عياضا هذا الكتاب الحافظ أبو على الحسين الصدفى المتوفى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م[٥] ، والفقيه ابو محمد بن عبد الرحمن الجذامى المعروف بابن عتاب المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م[٦] ، واخيراً أحمد بن خليفة بن قاسم بن منصور الخزاعى المكي.[٧] أما كتاب « المسند الصحيح المختصر من السنن » ، لأبى الحسين مسلم اليسابورى المتوفى عام ٢٦١ هـ / ٨٤٧ م فقد قرأه عياض وسمعه أيضاً على غير واحد من شيوخه ، منهم شيخه السبتى محمد بن عيسى بن حسن التميمى ، والحافظ أبو أبى على الحسين الصدفى الذى قرأ عليه عياض هذا الكتاب فى جامع مرسية

---

(١) ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .

(٢) ابن خلكان : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنووط وأخرين ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٦ ، جـ ٢ ص ٢١٢

(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤١ ، ابن الآبار : المعجم ، ص ٨١ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ٣٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[١] كما قرأه على الفقيه أبى محمد بن أبى جعفر الخشنى ،[٢] والفقيه أبى بحر سفيان بن العاصى بقرطبة عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م[٣] . أما كتاب « المعلم فى شرح مسلم » فقد حصل على الإجازة بروايته من إمام إفريقية أبى عبد الله محمد بن عمر بن على المازرى المتوفى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م[٤] .

كما كتب الإمام أبو نصر عبد الملك بن أبى مسلم الهمدانى إلى عياض يجيزه كتاب « الجمع بين الصحيحين » تأليف أبى عبد الله بن أبى نصر الحميدى المتوفى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٤ [٥] .

وسمع عياض كتاب « السنن » لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى عام ٢٧٥ هـ / ٨٦١ م على الفقيه أبى عبد الله التميمي[٦] ، وعلى أبى الوليد هشام بن أحمد المتوفى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م فى دارة بمدينة قرطبة بالسند المتصل حتى المؤلف [٧] . كما كتب الشيخ الحافظ أبو على الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى المعروف بالجيانى المتوفى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م إلى عياض يجيزه هذا الكتاب[٨] ، وقابل عياض كتابة بأصل الجياني[٩] .

كما قرأ عياض كتاب « الجامع » لأبى عيسى الترمذى على القاضى الحافظ أبى على الحسين الصدفي[١٠] .أما كتاب « السنن » لأبى عبد الرحمن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٣١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ١٥٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ٢٠٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٣٧ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .
(٨) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ابن فرحون : مصدر سابق ، ص ٣٣٣ .
(٩) عياض : مصدر سابق ، ص ٣٨ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

النسائى فقد قرأه عياض على أبى محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م[١] .

ويعد كتاب « موطأ الإمام مالك » من كتب السنة التى أطلع عليها عياض فى المرحلة التعليمية من حياته . وقد سمع الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثى من الفقيه السبتى أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى ، وسمعه أيضاً بهذه الرواية على جماعة من شيوخه ، منهم الشيخ الفقيه ابن عتاب ، كما قرأ هذا الكتاب وسمعه بقراءة غيره على الفقيه أبى اسحاق إبراهيم بن جعفر اللواتى ، وعلى الفقيه القرطبى القاضى ابن حمدين ، والفقيه أبى بحر سفيان بن العاصى الأسدى ، والشيخ أحمد بن محمد الخولانى . أما الشيخ أبو على الحسين بن محمد الغسانى الجيانى فقد كتب له يجيزه رواية هذا الكتاب[٢] .

كما أطلع عياض على الكتب التى ألفت فى الموطأ ، منها كتاب « الملخص لمسند الموطأ » تأليف أبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م . وقد قرأ عياض هذا الكتاب على شيخة أبى عبد الله التميمى السبتى ، وعلى الفقيه أبى إسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى ، وعلى الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي[٣] ، وإجازة من الحافظ أبى على الحسين المعروف بالجيانى [٤].

كما أجازه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى المتوفى عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م كتابه الذى ألفه فى شرح الموطأ والمسمى « بالمقتبس » [٥] . وقرأ على شيخه أبى عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمى كتاب

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، صفحات ٢٩ ، ٤٦ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٦٢ ، ٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق صفحات ، ص ٤٢ ، ١١٩ ، ١٦٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

« التقصى لمسند الموطأ » تأليف أبى عمر عبد البر ، وكتاب « مسند الموطأ » للجوهرى [١] وقرأ أيضاً كتاب « اختلاف الموطآت » للدار قطنى بالسند المتصل حتى المؤلف ، إجازة من الوزير أبى جعفر أحمد بن سعيد ابن خالد اللخمى المتوفى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م[٢] .

ومن أهم كتب الحديث التى سمعها عياض كتاب « السنن » للدار قطنى ، سمعه من أبى على الصدفى بالسند المتصل حتى مؤلفه[٣] وسمعه أيضاً من التاجر المقدسى أبى الحسن على بن أحمد بن على الربعى المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م[٤] أما كتاب « جامع عبد الله بن وهب » فقد سمعه عياض بالسند المتصل حتى المؤلف من الشيخ أبى محمد عبد الله بن أحمد التميمى السبتى المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م .[٥]

وتتعدد كتب الحديث التى سمعها عياض ، منها كتاب « الإخبار عن فوائد الأخبار » تأليف محمد بن إبراهيم بن يعقوب بن اسحاق ، وهذا الكتاب شرح لمائة وثلاثين حديثاً [٦] . وكتاب « الدلائل فى الحديث » تأليف أبى محمد بن قاسم بن ثابت السرقسطى المتوفى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك الأموى الحافظ[٧] .

كما سمع عياض من أبى العباس أحمد بن عثمان بن مكحول المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م كتاب « الشهاب » ، وهو « شهاب الأخبار فى الحكم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية » تأليف القضاعى [1] ، وهو محمد بن سلامة بن جعفر بن على القضاعى الشاطبى المتوفى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . وقد جمع هذا الكتاب من أحاديث الرسول ألف كلمة فى الحكم والوصايا والآداب والمواعظ والأمثال . وسمع عياض هذا الكتاب على الشيخ الحافظ أبى على الصدفى ، وعلى الفقيه أبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشني[2] .

كما أجاز الشيخ أبو سعيد حيدر بن يحيى الجيلى الصوفى عياضا « شرح كتاب الشهاب » للقضاعى لشارحه أبى القاسم بن إبراهيم الوراق[3] .

وقرأ أيضاً من كتب الحديث كتاب « الانتصار لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » تأليف الأصيلى ، وهو عبد الله بن إبراهيم الأندلسى المتوفى ٣٩٢ هـ / ١١٠١ م وكتاب « فضل عاشوراء » جميع أبى ذر ، قراءة على الفقيه أبى اسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى[4] .

وقرأ عياض عدة كتب أخرى فى الحديث بعنوان « الأربعين حديثا » ، الأول تأليف أبى نعيم الأصبهانى المتوفى عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، والكتاب الثانى تأليف الحسن بن سفيان ، وهذان الكتابان قرأهما عياض بالسند المتصل حتى المؤلف على شيخه الحافظ أبى على الصدفى [5] . كما سمع كتابا ثالثاً بهذا العنوان من تأليف الآجرى ، وهو أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، سمعه عياض من الفقيه أحمد بن محمد بن مخلد بن بقى القرطبى المتوفى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م[6] وقرأه على كل من الفقيه أبى اسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م[7] والفقيه يونس بن

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣١ ، ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٣٣ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

محمد بن مغيث القرطبى المتوفى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ (١). أما الكتاب الرابع والأخير تأليف الحاكم أبى عبد الله ، فقد سمعه من الشيخ التاجر سهل بن على بن عثمان النيسابورى المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م حين اجتاز سبتة وأقام بها مدة من الزمن(٢) .

أما الكتب التى تناولت غريب الحديث ، أى تذكر الأحاديث التى لها سند واحد فقط ، فقد قرأ عياض العديد منها ، مثل كتاب « شرح غريب الحديث » تأليف أبى عبيد القاسم بن سلام . قرأه فى سبتة على القاضى أبى عبد الله التميمى، وأيضاً على الفقيه أبى اسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى (٣).

كما قرأ عياض فى مدينة قرطبة كتابين بعنوان « غريب الحديث » ، الأول من تأليف المحدث أبى سليمان بن أحمد بن محمد الخطابى المتوفى عام ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج الأموى الحافظ (٤) . والكتاب الثانى من تأليف محمد بن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ، قراءة على الفقيه القرطبى المعروف بابن الحاج المتوفى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م وإجازة من الشيخ الحافظ المعروف بالجيانى (٥) . وقرأ عياض أيضاً « كتاب الغريبين » أى غريب الحديث ، تأليف أبى عبيد أحمد بن محمد بن أبى عبيد الهروى ، قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك الأموى (٦) . وأخيراً قرأ عياض فى غريب الحديث كتاب « إصلاح الغلط على أبى عبيد » تأليف أبى محمد بن قتيبة ، قراءة بالسند المتصل حتى المؤلف ، على قاضى سبتة أبى عبد الله

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ص ١١٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٨ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

التـمـيـمى [١] ، وعلى الحـافظ أبى العـبـاسى أحـمـد بن عـمـران الأنـصـارى الطليطلي[٢] .

وإذا كـان عـيـاض درس علم الحديث دراية فقد درسه رواية أيضاً ، وهو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث أحوال رواتهـا ، ومن حيث كـيـفـيـة السند اتصالا وانقطاعـا ، واشتهر هذا العلم بأصـول الحديث ومن أشـهـر تلك الكتب كتـاب « التاريخ الكبيـر » للبـخارى . وهذا الكتاب جمع فيه البخارى أسماء من روى عنه الحديث من زمن الصحابة إلى زمنه فبلغ عددهم تقريباً أربعين ألفا بين رجل وامرأة ، وضعيف وثقه ، وقد قـرأ عـيـاض هذا الكتـاب بالسند المتـصل حتى المؤلف على القـاضى الحـافظ أبى على الصدفى [٣] . وقـرأ أيضاً عـيـاض على القاضى الصدفى كتـاب « أسامى شيـوخ البخارى » الذين روى عنهم فى صحيحه ، والكتاب جمع أبى أحمد بن عدى[٤] .

وفى علم الحديث رواية سـمع عـيـاض أيضاً من أحمد بن طاهر بن على بن شبـرين الأنصارى المتـوفى عـام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م فـوائد منهـا تـصـانـيـفـه فى الحديث ، وهى كتـاب « رجال مسلم » [٥] . كما قـرأ على القاضى السبتى أبى عبد الله التميمى عدد من الكتب فى هذا العلم ، منها كتاب « الطبقات لمسلم » وكـتـاب « الطبـقـات للنسائى » ، وكـتـاب « الضـعـفـاء والمتـروكين » للمـؤلف الأخير[٦] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١٨ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

كما أجاز الحافظ أبو على الحسين المعروف بالجيانى عياضا كتابه الذى ألفه على الصحيحين المسمى « تقييد المهمل وتمييز المشكل » وهو فى أسماء رجال الصحيحين(١) .

وسمع عياض عدداً من المؤلفات التى تناولت أسانيد لحديث تأليف أبى الحسن الدارقطنى ، سمعها على شيخه الحافظ أبى على الصدفى وهي « الاستدراكات على البخارى ومسلم » وكتاب « الالزامات للبخارى ومسلم »- وكتاب « العلل الكبير » وكتاب « المؤتلف والمختلف »(٢) . كما قرأ عياض شرحاً للكتاب الأخير بعنوان « الإكمال فى المؤتلف والمختلف » تأليف الحافظ أبى نصر بن ماكولا المتوفى عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م على القاضى محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري(٣) .

أما كتاب « الجرح والتعديل لمن روى عنه البخارى فى الصحيح »(٤) . تأليف القاضى أبى الوليد الباجى المتوفى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، فقد سمعه عياض على القاضى الحافظ أبى على الصدفى فى مدينة مرسية(٥) ، وعلى الشيخ عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهرى فى مدينة سبتة(٦) .

كما أقرأ القاضى الحافظ أبى على الصدفى عياضا ثلاثة كتب فى رجال الحديث كتابان من تأليف أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ المتوفى عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٧ م ، الأول يسمى « أوهام الحاكم فى المدخل » ، والثانى

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩ .
(٤٣) الجرح والتعديل أي دراسة رواة الحديث أنفسهم وترتيبهم حسب صدقهم وأمانتهم في النقل ، وحيادهم المذهبي والسياسي ، فمن عرف بكذبه ، أو انتمى لفرقة سياسية أو دينية جرح ولم يقبل منه الحديث : أنور الرفاعي : الإسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ ، ص ٥٥٧ .
(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٣٥ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

يسمى « مشتبه النسبة » [1] . والكتاب الثالث بعنوان « الهداية والإرشاد فى معرفة أهل الثقة والسداد الذين روى لهم الأمام البخارى » تأليف الحافظ أبى نصر أحمد بن محمد الكلاباذى المتوفى عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٦ م[2] .

وامتدت قراءات عياض إلى علوم الحديث ومشكله ، فسمع فى مدينته كتاب « علوم الحديث » تأليف أبى عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، سمعه على شيخه أبى عبد الله التميمى . كما قرأ هذا الكتاب أيضاً على القاضى أبى عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلى المحدث المتوفى عام ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م[3] .

أما كتاب « مشكل الحديث » للإمام أبى بكر فورك ، فقد سمعه عياض بالسند المتصل حتى المؤلف من الفقيه أبى على الحسن بن عبد الأعلى الكلاعى الصفاقسى الأصل ، مستوطن سبتة والمتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م[4] .

وهكذا أصبح عياض من أئمة وقته فى الحديث ، حفظ متونه ورواته ، ودرس غريبه ومشكله ، وفقهه صحيحه وضعيفه عارفا بجميع علومه[5] .

وعلى أية حال ، يد ين عياض بن موسى فى تفرده فى علم الحديث رواية ودراية لأعلام المحدثين الذين درس عليهم هذا العلم فى العهد المرابطى . بالإضافة إلى أهم مصنفاته التى أطلع عليها . إن الاهتمام بالحديث الذى يعد المصدر الثانى للتشريع الإسلامى فى العهد المرابطى يعتبر الرد الأكبر على اتهام عبد الواحد المراكشى للمرابطين بأنهم كانوا يهتمون فقط بفروع الفقه المالكى ويهملون الأصول من كتاب وسنه[6]. فهذا الاتهام لا أساس له من الصحة، استناداً على أعلام

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ٧٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٤١ .
(٥) محمد بن عياض : مصدر سابق ، ص ٤ .
(٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٣٦ .

المحدثين الذين التقى بهم عياض ، بالإضافة إلى كتب الحديث التى درسها عياض نفسه سواء فى المغرب أو الأندلس. وجدير بالذكر أن دراسة عياض للحديث وعلومه ، قد جعلت منه إمام الحديث فى زمنه وأعرف الناس بعلومه.

(جـ) أصول الفقه :

يذكر القاضى عياض أنه درس أصول الفقه على الفقيه القاضى أبى عبد الله بن داود بن عطية بن سعيد القلعى المتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م[١] . كما حصل عياض من الإمام الأصولى أبى عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى المتوفى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م على إجازة بجميع تواليفه فى أصول الفقه ، منها كتاب « شرح البرهان » لأبى المعالى الجوينى المتوفى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ويعد هذا الكتاب من أهم كتب الأصول[٢] . أما شرح هذا الكتاب بعنوان « البيان لشرح البرهان » فقد أجازه هذا الكتاب أبو عبد الله محمد ابن المسلم بن محمد بن أبى بكر القرشى المخزومى الصقلى مستوطن مصر ، كما أجازه غير ذلك من الكتب [٣] .

كما حدث الفقيه عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهرى المتوفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م عياضا بكتابين للقاضى أبى الوليد الباجى المتوفى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م الأول « الفصول فى أحكام الأصول » ، والكتاب الآخر هو « التسديد إلى معرفة طرق التوحيد » ويذكر عياض أن أصول الباجى موجوده لديه [٤] . كما أطلع عياض فى قرطبة على كتاب « ساطع البرهان » تأليف ابن عبد الملك الفقيه ، إجازة من الشيخ الكاتب أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف بن سعد المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م[٥] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ ، المقرى : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ٨٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

وسمع عياض كتاب « الفقيه والمتفقه » من مؤلفه أبى عبد الله محمد ا بن عمر بن قطرى الزبيدى الاشبيلى[١] مستوطن سبتة وبها توفى عام ٥٠١ هـ/ ١١٠٦م[٢] . أما الإمام أبو بكر الطرطوشى مستوطن الإسكندرية والمتوفى عام ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م، فقد أجاز عياضا جميع مؤلفاته، منها كتاب فى أصول الفقه [٣] .

كما سمع عياض العديد من كتب الأصول منها كتاب « أصول الفصول » تأليف على بن أحمد الواحدى ، سمعه على الشيخ أبى نصر سهل بن عثمان النيسابورى المتوفى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م[٤] . وسمع أيضاً كتاب

« الإشراف على ما فى أصول الفرائض من الاختلاف » لأبى عمر بن عبد البر ، على الفقيه سفيان بن العاصى بن أحمد الأسدى البلنسى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م[٥] .

(د) كتب الفقه :

ارتفعت منزلة القاضى عياض فى مجال الفقه ، فقد عرف عنه العمق وحسن التعليل ، والقدرة على الترجيح ، والقدرة على الاستنباط ، حتى يمكن القول ، بأنه آخر من يعتد بثقافته الفقهية فى المغرب الإسلامى ، إذ قل أن نجد كتابا من كتب الفقه والنوازل ألف بعده خالا من ذكر آرائه ، ولذلك نجد اسمه يتردد وبكثرة فى المضفات الفقهية التى ألفت بعده [٦] .

لقد أدت دراسات عياض للفقه المالكى دراسة واعية متقنه فى أن يكون علماً من أعلام المذهب . وتعد « المدونة » التى ألفها سحنون بن سعيد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٦٧ .

(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٦) عمر الجيدي : أثر عياض في فقه العمليات ، ندوة الإمام مالك ، مراكش ١٩٨١ ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

(١٦٠ - ٢٤٠ هـ / ٧٧٧ - ٨٥٣ م) الأهم فى كتب الفقه التى درسها عياض، وقد أتقنها حتى إنه كان يناظر شيوخه فيها ، فعند حديث عياض عن شيخه الفقيه أبى عبد الله محمد التميمى السبتى المتوفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م تقول : « لقد لازمته كثيراً للمناظرة فى المدونة » ويقول أيضاً : « قرأت عليه الكثير منها رواية وضبطاً وأجازنى باقيها » بالسند المتصل حتى سحنون[١] .

وقرأ عياض أكثر المدونة ، وسمع باقيها على الفقيه محمد بن عتاب بالسند المتصل أيضاً حتى سحنون . كما راجع نسخه المدونة التى كانت بحوزته بأصل ابن عتاب، المقروء على ابن وضاح ، والأخير يروى المدونة عن مؤلفها سحنون[٢].

كما ناظر عياض فى المدونة عددا من الفقهاء منهم القاضى السبتى محمد ابن عبد الله بن محمد الأموى المتوفى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، والفقيه القاضى إبراهيم بن أحمد البصرى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م[٣] .

والتقى عياض ببعض الفقهاء الذين أجازوه المدونة وناظرهم فيها ، منهم الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشنى المتوفى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م[٤] والذى كان حافظاً للفقه على مذهب الإمام مالك ، ويعد شيخ فقها وقته [٥] ومنهم أيضاً القاضى عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم اللخمى المتوفى عام ٥١٣ / ١١١٩م[٦] .

ومن أجل كتب الفقه المالكى التى استفاد منها عياض كتاب « الرسالة » لأبى محمد بن أبى زيد القيروانى المتوفى عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م فقد قرأ هذا

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٥) ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

الكتاب على الفقيه السبتى محمد بن عيسى بن حسن التميمى ، بالسند المتصل حتى المؤلف[١] . كما قرأ جميعها على الخطيب أبى القاسم خلف بن إبراهيم المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م فى مجلس واحد فى داره بقرطبه[٢] ، وقرأها أيضاً وسمعها على الفقيه أبى اسحاق بن الفاسى المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م بالسند المتصل حتى المؤلف [٣] .

وتتعدد كتب الفقه التى درسها عياض منها أيضاً كتاب « اختصار الكتب المبسوطة » تأليف الفقيه أبى الوليد بن رشد المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وقد سمع عياض هذا الكتاب يقرأ على المؤلف الذى أجازه روايته [٤] . وقرأ عياض أيضاً كتاب « تلقين المبتدئ فى الفروع » لأبى محمد عبد الوهاب بن نصر المتوفى عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م بالسند المتصل حتى المؤلف ، على القاضى أبى على الصدفى ويقول عياض عن هذا الكتاب : « ليس للمالكية كتاب مثله»[٥] . وهناك أيضاً كتاب بعنوان « الرسالة » تأليف القاضى أبى بكر بن الطيب . وقد أطلع عياض على هذا الكتاب قراءة ومناظرة وتفقه فيه على القاضى الخطيب أبى القاسم بن محمد المعافرى السبتى المتوفى عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م [٦] .

وهناك بعض المؤلفات الفقهية الأخرى التى قرأها عياض ، منها كتاب « مسألة الإيمان اللازمة » لمؤلفها القاضى أبى بكر بن العربى المتوفى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٩ م[٧] ، وكتاب « النصائح » تأليف الفقيه إسحاق بن إبراهيم[٨] .

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، المقري : أزهار ، جـ ٣ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٣٥ ، المقري : أزهار ، جـ ٣ ، ص ١٥١ - ١٥٤ .
(٦) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٦ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٦٩ .
(٨) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

كما أجازه الإمام أبو بكر الطرطوشى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م رواياته وتصانيفه الفقهية ، منها كتاب « البدع والمحدثات » ، وكتاب « بر الوالدين » و « رسالة فى تحريم الغناء » وغير ذلك [١] .

(هـ) كتب السيرة النبوية :

أطلع عياض على أهم كتب السيرة النبوية وهو كتاب « سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأبى محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام ٢٠٨ هـ / ٨٣٤ م . لقد قرأ عياض هذا الكتاب بقرطبة ، بالسند المتصل حتى المؤلف على أبى بحر ، سفيان بن العاصى بن أحمد الأسدى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وقارن عياض نسخته من هذا الكتاب بنسخة أبى بحر . وقد حدث عياضا بهذا الكتاب الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى سماعاً للكثير منه وإجازه لما فاته [٢] .

٢ - علم الكلام :

لم يكن عياض أصولياً فقيهاً حافظاً لمسائل المختصر والمدونة قائماً عليها فقط فقد كان أيضاً متكلماً [٣] . ولذلك صحب عياض المتكلم عبد الغالب بن يوسف السالمى المتوفى عام ٥١٩ هـ / ١١٢٢ م أثناء إقامته فى سبتة . ويعد هذا المتكلم من رواد علم الكلام على مذهب أهل السنة من الأشعرية ، وقد استفاد منه عياض كثيراً إذ يذكر أنه ناوله كثيراً من مجموعاته[٤] .

أما يوسف بن موسى الكلبى المتكلم ، أبو الحجاج الضرير ، فقد كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية . حتى قال عنه عياض إنه

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣ .
(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٠٦ .
(٣) ٣ محمد بن عياض : التعريف ، ص ٤ .
(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

« آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب » وقد سكن هذا المتكلم سبتة وقرأ عليه عياض أرجوزته الصغرى التى ألفها فى الاعتقادات ، كما حدثه بالكبرى وأجازه الصغرى والكبرى[١] .

وأخيراً قرأ عياض كتاب « الفرق » للقاضى أبو الوليد الباجى ، مناولة من أبى عبد الله محمد بن مفرح بن محمد بن سليمان الضهاجى المتوفى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م[٢] وإذا كان عياض متكلماً كما قال ابنه محمد ، فقد كان ذلك على مذهب الأشاعرة يشهد على ذلك أن القاضى عياضا فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » يذكر آراء أبى الحسن الأشعرى ويقول عنه إنه إمام أهل التحقيق[٣] وفى هذا الكتاب أيضاً يذكر آراء كبار الأشاعرة مثل أبى بكر الباقلاني[٤] وأبى المعالى الجونبى إمام الحرمين[٥] . ويقول عنهما انهما من أئمتنا [٦] ويدل هذا الكلام على صلته الوثيقة بمذهب الأشاعرة وقراءته لمؤلفاتهم فى الاعتقاد[٧] ، وعلى أنه أشعرى المذهب .

٣ - التصوف الإسلامى :

يعد كتاب « الرعاية لحقوق الله والقيام بها » للمحاسبى وهو الحارث بن أسد البصرى المتوفى عام ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م الأهم فى كتب التصوف الإسلامى . وقد حصل عياض على إجازة برواية هذا الكتاب من الشيخ الصوفى محمد بن خميس الذى يعد من أهل غرب الأندلس والذى عرف بالتقشف والصلاح .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ٦٥ ، ٨٨ .

وقـد جالسـه عياض كثيراً وسمع منه أيضاً كتابه الذى ألفه فى التصوف بعنوان « المنتقى من كلام أهل التقى »[1] .

٤ - اللغة العربية وعلومها :

درس القاضى عياض العديد من نفائس التراث العربى الإسلامى فى مجال اللغة العربية وعلومها ، حتى أصبح كما قال ابن فرحون « عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب » [2] وامتدحه الضبى بقوله إنه « كان أديباً »[3] . ويدين عياض بثقافته اللغوية المتنوعة لعدد من أعلام النحو والأدب الذين التقى ببعضهم فى مسقط رأسه فى مدينة سبتة ، والتقى بالبعض الآخر فى بلاد الأندلس .

أما فى مدينة سبتة فقد التقى عياض بالعالم النحوى الحسن بن على بن طريف المتوفى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م وقال عنه إنه« شيخ بلدنا فى النحو » . فقد قام هذا النحوى بتدريس النحو فى سبتة وأخذ عنه الكثير منهم القاضى عياض ، [4] الذى درس عليه كثيراً من كتب اللغة العربية ، ففى النحو قرأ كتاب « الجمل » لأبى القاسم إسحاق الزجاجى (٢٥٢ - ٤١٥ هـ / ٩٦٣ - ١٠٢٤ م) ، وكتاب « الواضح » للزبيدى وكتاب « الكافى فى النحو » لأبى جعفر ابن محمد النحاس النحوى المتوفى عام ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م ، وكتاب« الإيضاح » تأليف إبراهيم بن على الفارسى الذى كان حياً خلال الرابع الأخير من القرن الرابع الهجري[5] قرأ عياض على هذا العالم بعض الكتب فى مجال اللغة ، منها كتاب « فصيح الكلام » الثعلب ، وهو أحمد بن يحيى بن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢) الديباج ، ص ٤٧ .

(٣) بغية الملتمس ، ص ٤٣٧ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٤١ ، السيوطي : مصر سابق ، جـ ١ ، ص ٥١٣ .

(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤١ .

زيد الشيبانى المتوفى عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م ، وكتاب «أمالى القالى فى اللغة» لأبى على إسماعيل بن القاسم اللغوى المتوفى عام ٣٥٦ هـ / ٩٩٦ م[١] .

وقرأ عياض أيضاً بعض كتب الأدب ، منها كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة المتوفى عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، وكتاب « المقتضب » للمبرد وهو محمد بن يزيد الأردى المتوفى عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م وسمع لنفس هذا المؤلف كثيراً من كتاب « الكامل فى الأدب واللغة »[٢] وقد قرأ عياض هذا الكتاب الأخير على الأديب أبى بكر محمد بن عبد الله بن البراء الجزيرى المتوفى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م[٣] .

ومن أعلام النحو والأدب فى سبتة يوسف بن موسى الكلبى المتكلم النحوى المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م الذى كان من أهل النحو[٤] . وقد أخذ عنه عياض كتاب « فقه اللغة وسر العربية » لأبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى النيسابورى المتوفى عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م بالسند المتصل حتى المؤلف [٥] .

وجالس عياض فى بلده الأستاذ الأديب النحوى أبى الحسين يحيى بن محمد المعروف بابن الطراوة الذى يعد أحد أئمة الأدب والنحو ، والذى كان مهتما بكتاب سيبويه ، كما كان شاعراً ولذلك حضر عياض مجالسه فى الأدب وسمع الكثير من شعره [٦] .

بعد أن درس عياض فى سبتة العديد من كتب اللغة العربية ، ذهب إلى الأندلس للتأكد من سلامة المادة المروية والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠ .
(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ٢ ، ص ٦٨٢ .
(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ٢٢٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ ، السيوطي : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٣٤١ .

بأصحابها ، وقراءة كتب جديدة فى هذا المجال . فعياض قرأ فى سبتة كتاب الكامل للمبرد على اثنين من شيوخه ، وحين رحل إلى قرطبة والتقى بالأديب الراوية محمد بن سليمان النفزى المعروف بابن أخت غانم والمتوفى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م . قرأ عليه نفس هذا الكتاب بالسند المتصل حتى المؤلف[١] .

وفى رحلته إلى الأندلس قرأ عياض على هذا الأديب عدداً من المؤلفات لم يقرأها فى سبتة ، منها كتاب « إصلاح المنطق » للأديب يعقوب بن إسحاق الشهير بابن السكيت المتوفى عام ١٢٤٤هـ/٨٥٨م وهو من الكتب المختصرة فى الأدب ، كما سمع منه كتاب « الألفاظ » لهذا المؤلف أيضا. وقرأ أيضاً كتاب « الزاهر فى معانى الكلام الذى يستعمله الناس » لأبى بكر محمد الأنبارى النحوى المتوفى عام٣٢٨هـ/٩٣٩م بالسند المتصل حتى المؤلف . وقرأ كتاب « مختصر العين » لأبى بكر الزبيدى ، وأخيراً قرأ كتاب « الحماسة » لأبى الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني[٢] .

كما سمع عياض فى قرطبة كتابى « شرح الجمل » و « شرح المقدمة » من تأليف ابن بابشاد ، على الخطيب أبى القاسم خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد المتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م[٣] وفى نفس المدينة سمع أيضاً كتاب « الفصوص فى اللغات والأخبار » لأبى العلاء صاعد بن الحسن البغدادى المتوفى عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٥ م على الفقيه القرطبى محمد بن عتاب[٤] .

كما التقى عياض فى قرطبة بالأديب النحوى الأستاذ على بن احمد بن خلف الأنصارى المتوفى عام ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م والذى يعد أوحد زمانه إتقاناً ومعرفة

---

(١) عياض : مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

وتفرداً بعلم العربية . [1] وقد قرأ عليه عياض كتابين : الأول كتاب « أدب الكاتب » لأبى محمد بن قتيبة ، وراجع عياض نسخته من هذا الكتاب بكتاب هذا العالم ، والكتاب الثانى هو « فصيح الكلام » لثعلب [2].

وفى مدينة إشبيلية التقى بالأستاذ النحوى على بن عبد الرحمن محمد التنوخى المتوفى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م والذى يعد من أهل المعرفة باللغة والأدب حافظاً لهما [3] . ولذلك قرأ عليه عياض بعض المؤلفات الشعرية مثل كتاب « شرح الأشعار الستة » ، وكتاب « شرح الحماسة » ، وكتاب « شرح شعر حبيب » لأبى الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم[4] .

كما أن شيخ الأدباء عالم النحو واللغات والشعر والبلاغة أبو محمد عبد الله ابن محمد بن السيد النحوى البطليوسى الذى سكن بلنسية وبها توفى عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م أجازه مصنفاته منها « شرح أدب الكاتب » و« شعر المعرى » [5] .

ومن كتب الأدب التى سمعها عياض كتاب « أدب الصحبة » ، سمعه من أبى على الحسين الصدفى بالسند المتصل حتى المؤلف عبد الرحمن بن محمد بن الحسين السلمى النيسابورى المتوفى عام ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م[6] .

وعلى أية حال لقد استوعب عياض بن موسى العديد من كتب اللغة والنحو والأدب التى قرأها على أساتذته فى هذا المجال . وقد أفادته هذه الدراسة فيما تركه من تراث علمى زاخر .

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .
(٢) عياض : مصدر سابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .
(٤) عياض : مصدر سابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، السيوطي : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .
(٥) عياض : مصدر سابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ابن بشكوال : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
(٦) عياض : مصدر سابق ، ص ١٣٤ .

٥ - كتب الطبقات والتراجم :

يعد كتاب « الصحابة » لأبى عمر بن عبد البر من أهم الكتب التى تناولت سيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أجاز عياض هذا الكتاب الفقيه الراوية أبو عمران موسى بن عبد الرحمن الشاطبى المتوفى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م حين التقى به فى مدينة سبتة(١) .

كما حصل عياض أثناء رحلته إلى شرق الأندلس على إجازة لكتابين مؤلفين على كتاب الصحابة لأبى عمر بن عبد البر ، وهما كتاب « التنبيه على الاستيعاب » وكتاب « الذيل » للفقيه محمد بن خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون الأريولى المتوفى عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م (٢) .

أما كتاب «طبقات القراء» لأبى عمرو الدانى فيذكر عياض أن الخطيب أبا القاسم خلف بن إبراهيم المعروف بابن النحاس المتوفى عام٥١١ هـ/ ١١١٧ م ناوله هذا الكتاب أى قرأه عليه بالسند المتصل حتى المؤلف(٣). وأخيراً سمع عياض كتاب « طبقات علماء الأندلس » للقاضى أبى الوليد الفرضى بالسند المتصل حتى المؤلف من الفقيه ابن عتاب الجذامى المتوفى عام ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م(٤) .

وعلى ذلك فإن القاضى عياض يدين فيما وصل إليه من مكانة علمية مرموقة إلى شيوخه وأساتذته الذين عنوا به عناية كبيرة ، وقرأ عليهم أمهات كتب التراث العربى الإسلامى فى كافة فنون العلم والمعرفة ، وكان لكل ذلك أكبر الأثر فى تكوينه العلمى . ساعد على ذلك استعداده الشخصى الذى أعانه على استيعاب هذا الكم من العلوم والإحاطة بكلياتها فقد « نشأ محمود الأقوال والأفعال ، طالباً للعلم حريصاً عليه ، مجتهداً فيه ، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم ، كثير المجالسة لهم » (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨١ ، ابن الأبار : المعجم ، ص ١١٥ .
(٣) عياض : مصدر سابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٥) محمد بن عياض : مصدر سابق ، ص ٤ .

الخاتـمة

يمكننا بعد هذه الدراسة عن القاضى عـياض التى تناولت النشأة والتكوين العلمى ، أن نخلص إلى النتائج التالية :

أوضحت هذه الدراسة أن القاضى عياض بن موسى المولود فى منتصف شعبان عام ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، عربى الأصل ، سبتى الدار والميلاد ، سكن أجداده فى القيروان ثم الأندلس وفاس قبل استقرارهم النهائى فى مدينة سبتة . وقد تم تحديد عام ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م تقريباً بداية هذا الاستقرار حين وفد جد أبيه عمرون إلى هذه المدينة .

كما بينت الدراسة أن عياضا قد عايش فترة الحكم المرابطى لمدينته وشاهد فى صباه جيوشهم تنطلق منها إلى الأندلس لإخماد شوكة نصارى الأسبان ، ثم القضاء على ملوك الطوائف . وبذلك نجح المرابطون فى تحقـيق وحدة العدوتين المغربيـة والأندلسية ، وقضوا على التمزق السياسى فعم الأمن والاستقرار فى هذه البلاد كلها . وقد تركت هذه الصور التى شاهدها عياض وعاشها بصماتها فى نفسه بلا شك كما أن الاستقرار الذى نعمت به مدينته قد شجع على تدفق العلماء الذين قدموا إليها من مدن المغرب والأندلس والمشرق الإسلامى .

كما أبرزت دراسة مجتمع سبتة الذى أنجب عياض دور الموقع الجغرافى للمدينة وهو دور أعان فى أن تكون سبتة قاعدة من قواعد الغرب الإسلامى فى ميدان العلم والثقافة ، ومركزاً لاستقبال والتقاء العلماء الذين جالسهم عياض واستفاد منهم .

كما كانت هذه المدينة عامرة بالسكان والعلماء ، ويتفق الباحث مع البكرى فى سكنى العنصر العربى للمدينة ، لكنه لم يتفق معه فى أن قبيلة صدف هى العنصر العربى الوحيد ، لأن الشواهد المستمدة من فهرس شيوخ القاضى عياض تؤكد تعدد العناصر العربية التى سكنت سبتة وتنسب إلى لخم ويحصب والأزد ومعافر وتميم وقريش .

كـمـا أكـدت دراسـة النشـاط الاقـتـصـادى لسـبـتـة علـى أن المدينة نعـمت بإمكانيات اقتصادية كبيرة . فالمدينة عرفت نشاط زراعى لا بأس به بالإضافة إلى ازدهار حرفة الصيد البحرى ، والنشاط التجارى الذى ازدهر بحكم موقع المدينة البحرى الذى ربطها بشبكة من المراسى الساحلية ، فنشطت تجارة الصادر والوارد . وجدير بالذكر أن السياسة المالية للدولة المرابطية فى ميدان الجباية قد أعانت على ازدهار النشاط الاقتصادى . وقد جذب هذا الازدهار العلماء إلى سبتة ، كما جذب بعض التجار الذين وفدوا إليها ممن كانوا حاملين للعلم ، ولذلك جالسهم عياض وأخذ عنهم .

وقد حددت الدراسة ثلاثة مصادر أسهمت فى التكوين العلمى للقاضى عياض ، المصدر الأول مدينته سبتة التى كانت فى ذلك الوقت مركز إشعاع فكرى وحضارى بفضل علمائها ومن وفد إليها من علماء الأندلس والمغرب والمشرق . والمصدر الثانى هو الأندلس الذى رحل إليه وهو ملم بعلوم عصره وكان الهدف من هذه الرحلة هو التأكد من صحة الكتب التى قرأها أو سمعها والبحث عن أصولها وأسانيدها . والتقى عياض فى رحلته تلك بعلماء قرطبة ، وإشبيلية وغرناطة ومرسية وسرقسطة وشاطبة والمرية ولورقة واريوله .

أما المصدر الثالث لثقافته فهو المشرق الإسلامى رغم أنه لم يرحل إليه لكنه نهل من ثقافته من خلال من وفد إلى سبته من علمائه ، أو من كتب يجيزه من المشارقة رواياتهم .

ونتيجة لذلك تنوعت طرق التحصيل العلمى للقاضى عياض ، فيذكر عن شيوخه أن هناك من جالسهم وقرأ عليهم بقراءته ، أو سمع منهم بقراءة غيره ، ويشير فى أحيان كثيرة أنه قرأ أو سمع بالسند المتصل حتى المؤلف ، وهذا يوضح حرص عياض على الأسانيد المتصلة وصحتها . أحيانا يستخدم جملة ناولنى كتاب كذا ، والمقصود بالمناولة القراءة بالسند المتصل ، وهناك من جالسه وسأله فى مسائل العلم . وهناك من صحبه كثيراً ودرس عليه ، وأخيراً يذكر أن هناك من كتب عنه فوائد ، وهناك من كتب له من شيوخه بخطوطهم فوائد .

وقد أوضحت الدراسة الكتب التى درسها القاضى عياض وأسهمت فى تكوينه العلمى ، وكان أولها القرآن الكريم وعلومه . فقد كان حافظاً لكتاب الله تعالى ، قارئاً لكتب القراءات والتفسير وعلم الناسخ والمنسوخ حتى أصبح كما قال ابنه محمد : « كان عارفاً بجميع أنواع علومه » .

أما علم الحديث فقد حرص عياض على ملازمة المحدثين والحفاظ لكتبه ، ومقابلة أصوله بأصولهم . وحرص أيضاً على دراسة علم الحديث دراية ، فدرس لذلك كتب الصحاح صحيح البخارى ومسلم وكتب السنن كسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وكتب الجوامع كجامع الترمذى وجامع عبد الله بن وهب ، وموطأ الإمام مالك ، وما كتب عنه . بالإضافة إلى كتب بعنوان الأربعين حديثاً وكتب غريب الحديث وغير ذلك من الكتب التى أعانته على دراسة علم الحديث دراية . كما درس كتب الحديث التى اهتمت بالرواة واتصال الأسانيد ، حتى أصبح أحفظ رجال عصره وأعلمهم بعلم الحديث دراية ورواية .

كما أبرزت الدراسة اهتمام القاضى عياض بدراسة الفقه وأصوله وتم ذكر الكتب التى أطلع عليها حتى أصبح فقيها أصولياً بصيراً بالفتيا والأحكام والنوازل . وأبرزت الدراسة أيضاً قيام عياض بدراسة علم الكلام على مذهب الأشاعرة ، بالإضافة إلى دراسة السيرة النبوية ، وكتب التصوف ، وكتب الطبقات والتراجم .

وأخيراً إذا بينت الدراسة إهتمام القاضى عياض بالإلمام بكل ما كتب عن القرآن الكريم وعلومه ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، فإن هذا الاهتمام لم يثنه عن دراسة اللغة العربية وعلومها ، وعن التردد على شوامخ النحاة والأدباء الذين ذاع صيتهم فى الأندلس والمغرب لحضور حلقاتهم والأخذ عنهم . كما حددت الدراسة المصادر النحوية واللغوية والأدبية التى استقى منها عياض معارفه فى علوم اللغة العربية حتى قال مترجموه إنه كان عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب ، شاعراً مجيداً أديباً ، خطيباً بليغاً .

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية المطبوعة :

ابن الأبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر المتوفى ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ م).

- التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجى ،القاهرة ١٩٥٦ .

- المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى ،تحقيق إبراهيم الابيارى ،دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

ابن أبى زرع : (أبو الحسن على بن عبد الله كان حيا عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م).

- الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أحبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مراجعة عبد الوهاب بن منصور،المطبعة الملكية،الرباط،الطبعة الثانية ١٩٩٩ .

أحمد بابا : (أحمد بابا بن عمر أقيت التنبكتى المتوفى ١٠٣٦ هـ /١٦٢٧م) .

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، مكتبة الدعوة الإسلامية، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

الإدريسى : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس المتوفى عام ٥٥٨ هـ/١١٦٢م) .

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، بدون تاريخ .

ابن بشكوال : (أبو القائم خلف بن عبد الملك المتوفى عام ٥٧٨ هـ /١١٨٢م).

- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .

البكرى : (أبو عبد الله بن عبد العزيز البكرى المتوفى عام٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م).

- المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن ، وأندرى فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢ .

ابن الجزرى : (أبوالخير بن محمد الجزرى المتوفى عام ٨٣٣ هـ/ ١٤٣٠م) .

- غاية النهاية فى طبقات القراء ، عنى بنشره ج برجستراثر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢ م .

حاجى خليفة : (مصطفى بن عبد الله الرومى الحنفى المتوفى١٠٦٧هـ /١٦٥٧م)

- كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢

الحميرى : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله المتوفى عام ٨٦٦ هـ/ ١٤٦٣م) .

- الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ م .

ابن خاقان : (الفتح بن محمد بن عبد الله الأشبيلى المتوفى عام٥٢٩ هـ/١١٣٤م).

- قلائد العقبان ومجلس الأعيان ، تحقيق حسن يوسف ، مكتبة المنار ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد المتوفى عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) .

- العبرودیوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ١٩٧١م .

ابن خلكان : (أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨ م .

الداوودى : (الحافظ محمد بن على بن أحمد المتوفى عام ٨٧٨ هـ/١٣٧٤ م).

- طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

الذهبى : (محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى عام ٧٧٨ هـ / ١٣٧٤ م) .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنووط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٦ م.

ابن سعيد :(على بن موسى بن سعيد المغربى المتوفى عام ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م).

- كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربى ، منشورات المكتب التجارى للطباعة ،بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

السيوطى :الحافظ جلال الدين عبد الرحمن المتوفى عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م).

- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م .

الصفدى : (صلاح الدين خليل بن أيبك المتوفى عام ٧٦٤ هـ / ١٣٦٥ م).

- الوافى بالوفيات ، طبعة المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية ، بيروت ، نشر فرانز شتاينر ، فيسبادن ، جـ٢ ، استانبول ١٩٤٩ م .

الضبى : (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة المتوفى عام ٥٩٩ هـ/١٢٠٣م).

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ م.

عبد الحق البادیسى : (عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد الغرناطى كان حيا عام ٧٢٢ ه / ١٣٢٢ م) .

- المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد إعراب ، المطبعة الملكية ، الرباط ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ م

عبد الواحد المراكشى : (عبد الواحد بن على المتوفى عام ٦٤٧ هـ/١٢٤٩م).

- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ،تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ .

ابن عذارى : (محمد بن عذارى المراكشى توفى نهاية القرن ٧ هـ / ١٣ م).

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ .

العماد الحنبلى :أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد المتوفى ١٠٨٩ هـ / ١٧٠١ م).

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، ١٩٦٦,

عياض : (القاضى أبو الفضل عياض بن موسى المتوفى عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م).

- الغنية ، فهرس شيوخ القاضى عياض ، تحقيق ماهر زهير جرار ،دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٢

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق محمد ابن تاويت الطنجى، وزارة الأوقاف المغربية،الرباط الطبعة الثانية ١٩٨٣

- تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض، تحقيق محمد الطالبى ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ١٩٦٨ .

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،بدون تاريخ .

عياض وولده محمد :

- مذاهب الحكام فى نوازل الأحكام ، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

ابن عياض : (محمد بن عياض بن موسى المتوفى عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩).

- التعريف بالقاضى عياض ، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة ،مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ .

ابن فرحون : (إبراهيم بن نور الدين المالكى المتوفى ٧٩٩ هـ / ١٤١١م).

- الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق الأحمدى أبو النور ، دار التراث ، القاهرة ١٩٧٢ .

ابن القاضى : (أحمد بن القاضى المكناسى ٩٦٥- ١٠٢٥ هـ/ ١٥٧٢-١٦٢٧م).

- جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ،دار المنصور للطباعة ، الرباط ١٩٧٤ .

القفطى : (أبو الحسن على بن يوسف المتوفى عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م) .

- أنباء الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠ .

مجهول : (توفى فى القرن السادس الهجرى /الثانى عشر الميلادى) .

- الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .

مجهول :

- الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وآخرين ، دار الشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

مجهول :

- نبذة تاريخية من أخبار البربر فى العصور الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤

المقرى : (أحمد بن خالد التلمسانى المتوفى عام ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

- أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، الرباط ١٩٧٨ .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق أتحسان عباس ،دار صادر، بيروت ١٩٨٨ .

الناصرى : (أحمد بن خالد السلاوى المتوفى عام ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م).

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،تعليق وتحقيق ولدى المؤلف جعفر الناصرى ، ومحمد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٩٧ .

اليعقوبى : (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر المتوفى عام ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م).

- كتاب البلدان ، النجف ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

ثانيا المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم حركات :

- المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ .

أحمد مختار العبادى (دكتور) :

- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ،صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية مدريد ، مجلد ٥ ، العدد ١ ، ٢ ،مدريد ,١٩٥٧

إدريس أحمد خليفة :

- التاريخ المغربى لمدينة سبتة ، مكتبة الأمنية ، تطوان ١٩٨٨ .

آنخيل جنثالث بالنثيا :

- تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة الطبعة الأولي. ١٩٩٥

أنور الرفاعى :

- الإسلام فى حضارته ونظمه ، دار الفكر، دمشق ، الطبعة الثالثة ,١٩٨٦

بروفنسال ، ليفى :

- تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة على عبد الرءوف وآخرين ،منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠ .

جاك كانى :

- مدينة سبتة فى أواسط القرن الخامس الهجرى من خلال كتاب المسالك والممالك للبكرى ، مجلة البحث العلمى العدد ١٩ ، الرباط يونيو ١٩٧٢ .

الحبيب الجنحانى :

- دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

حسن أحمد محمود (دكتور) :

- قيام دولة المرابطين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسين سيد عبد الله مراد (دكتور) :

- العرب فى مدينة القيروان ودورهم الثقافى حتى نهاية عصر الولاة ، مجلة بحوث فى الدراسات الأفريقية ، العدد ٤٣ ،القاهرة ١٩٩٥ .

حسين مؤنس (دكتور) :

- معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، القاهرة، الطبعة الثانية ,١٩٩٧

رجب محمد عبد الحليم (دكتور):

- دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :

- تاريخ المغرب العربى ، الجزء الرابع ، المرابطين ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ،الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

- تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ،بدون تاريخ .

عبد العزيز فيلالى (دكتور) :

- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية فى الأندلس ودول المغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

عبد الله العروى :

- مجمل تاريخ المغرب ، المركز العربى للثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ .

عمر الجيدى (دكتور) :

- أثر القاضى عياض فى فقه العمليات ، ندوة الإمام مالك ، دورة القاضى عياض ، مراكش ١٩٨١ .

الكتانى ، محمد بن جعفر:

- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ،دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ .

محمد بن تاويت :

- الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ،الجزء الأول ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ .

- تاريخ سبتة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

محمد زنيبر :

- محور فاس سبتة وأهميته فى العصور الوسطى ، بحث منشور فى ندوة المدينة فى تاريخ المغرب ، الدار البيضاء ١٩٨٨ .

محمود على مكى (دكتور) :

- التشيع فى الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ٢ ، العدد ١ ، ٢ ،مدريد ١٩٥٤ .